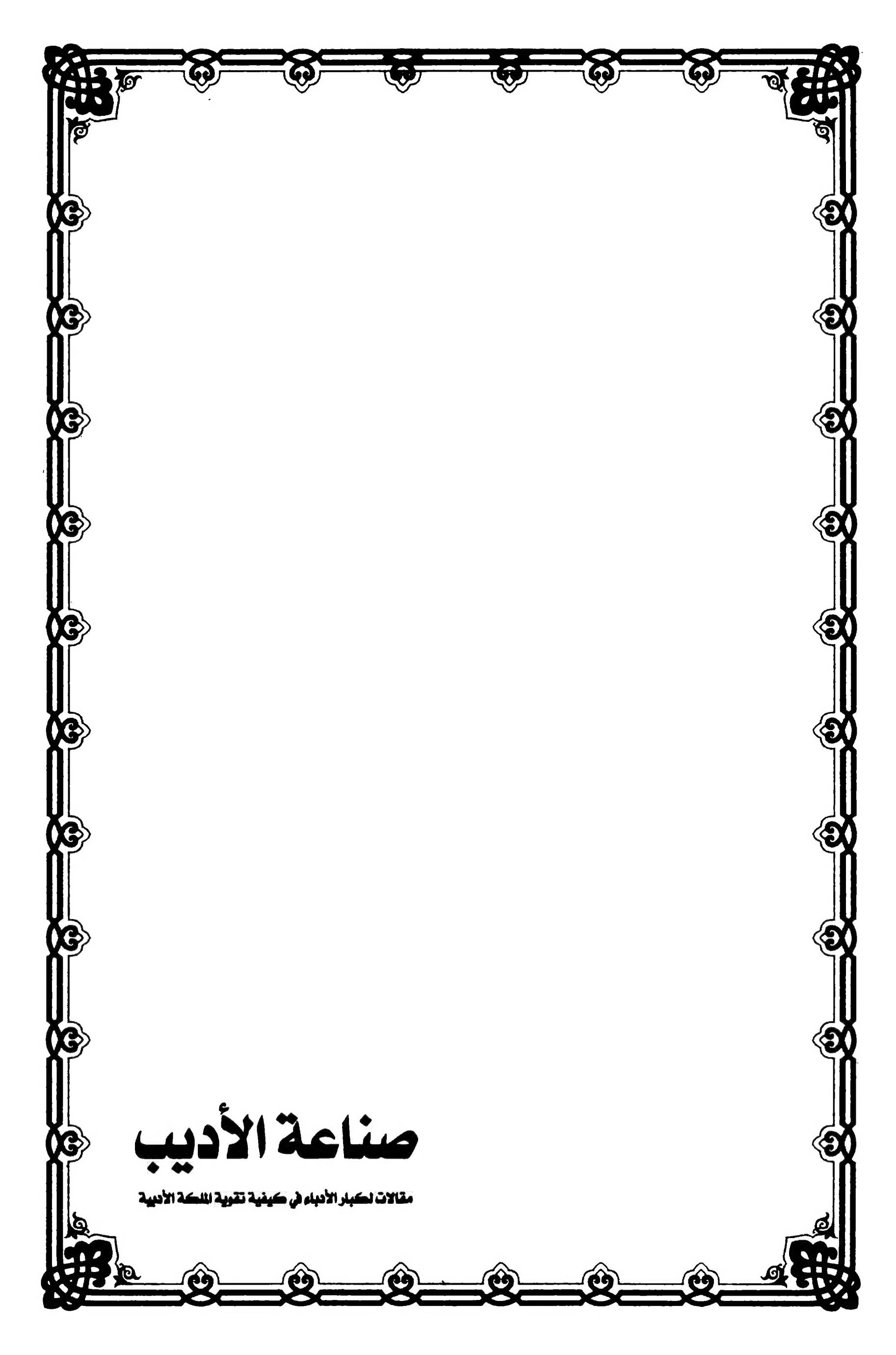
صناعة الأديب

مقالات لكبار الأدباء في كيفية تقوية الملكة الأدبية

جمع وترتيب
عثمان خليفة صديق





صناعة الأديب

مقالات لكبار الأدباء في كيفية تقوية الملكة الأدبية



حقوق الطبع محفوظة

ح عثمان خليفة محمد، ١٤٤٠ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

محمد ، عثمان خليفه صديق

صناعة الأديب. / عثمان خليفه صديق محمد ـ ط ١. ـ. المدينة المنورة ، ١٤٤٠ هـ

٩٧ ص ؛ ٢٤ سم

ردمك: ٠ - ٩٠١٣ - ٠٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ -المقالات العربية ٢ -الادب العربي - مقالات و محاضرات

٣ - الادباء العرب - العصر الحديث أ. العنوان

ديوي ٨١٤,٠٠٨ ١٤٤٠/٤٠٩٣

رقم الإيداع ١٤٤٠/٤٠٩٣ ردمك: ٠ - ٩٠١٣ - ٠٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

دار الأوراق للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية

ص ب: ١٥٥٣٣ جدة ٢١٤٥٤ الإدارة: ‎+٩٦٦٥٠٥٣١٨٧٦٧

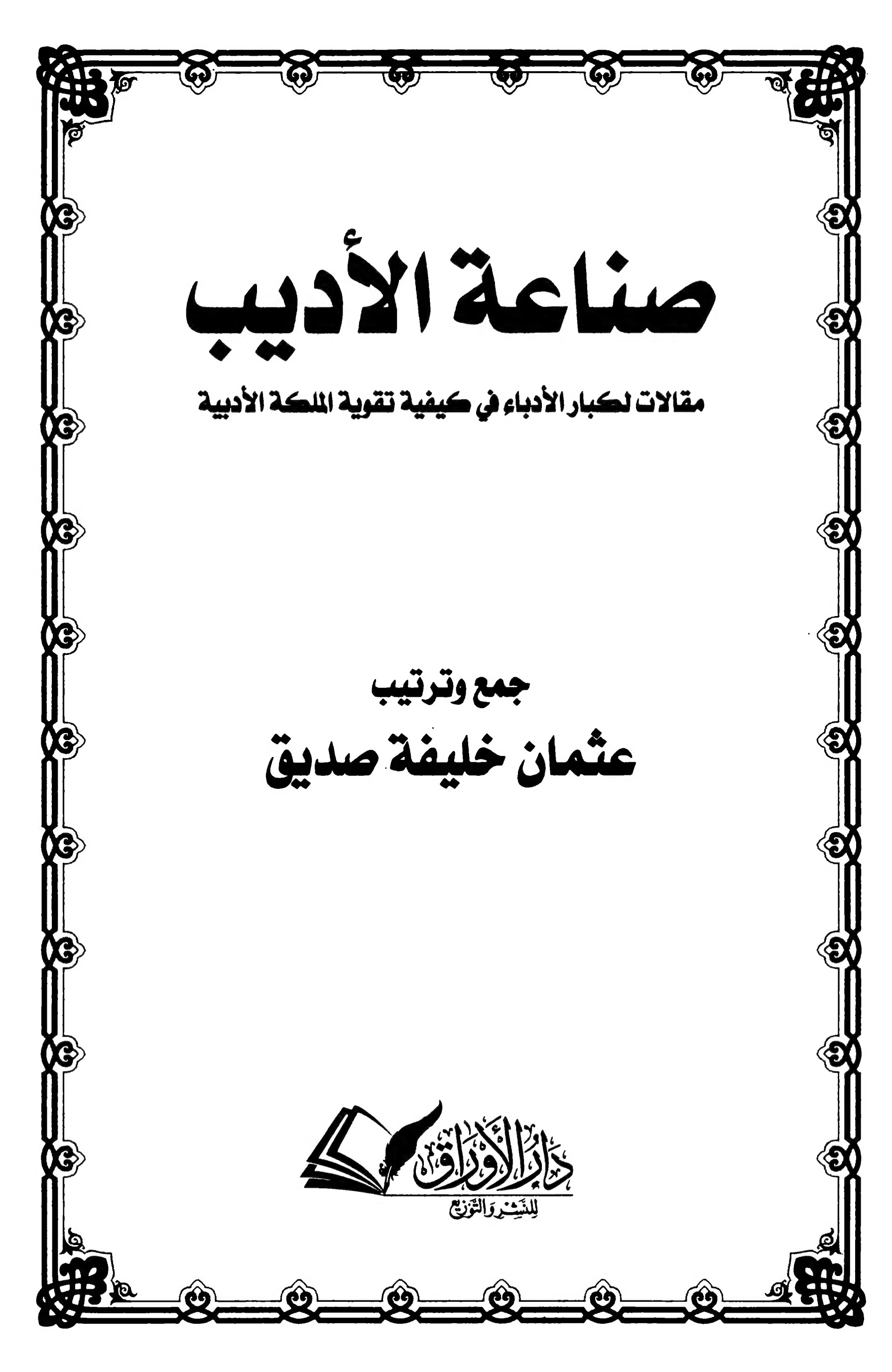
تليفاكس: ‎+٩٦٦٢٦٨٠٣٠٠٢

جدة: ٠٥٣٧٢٥٤٩٣٩ المدينة المنورة: ٠٥٥٠٧٦٢٠٧٨

www.daralawraq.com.sa

daralawraq@gmail.com

@daralawraq



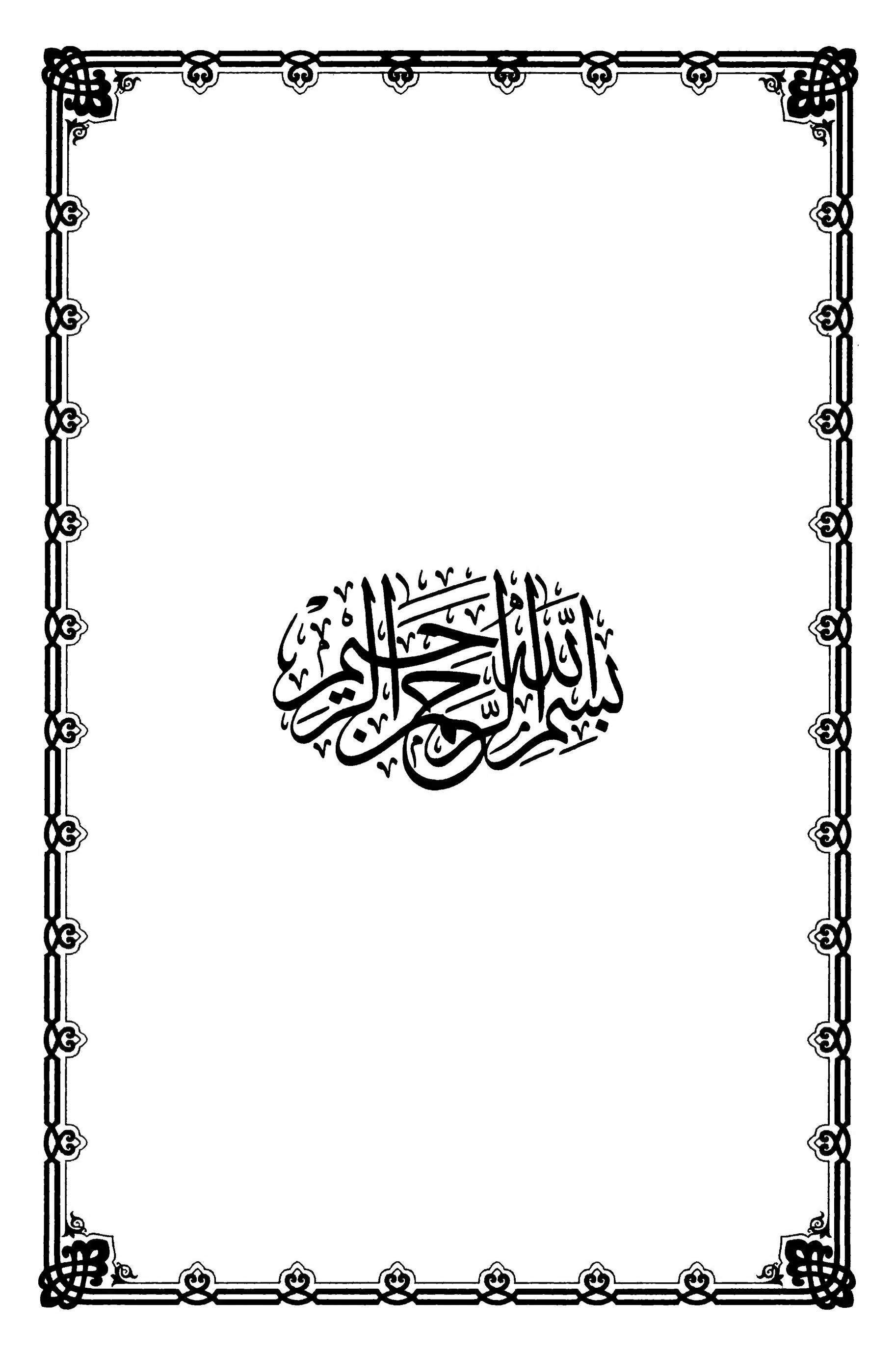
صناعة الأديب

مقالات لكبار الأدباء في كيفية تقوية الملكة الأدبية

جمع وترتيب

عثمان خليفة صديق

دار الأوراق للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين القائل: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١-٤]. والصلاة والسلام علىٰ أشرف المرسلين، نبينا محمد القائل: (إن من البيان لسحرا)[١].

أما بعد:

فلا يخفىٰ علىٰ كلِّ ذي لُبٍّ ما للأدب من مكانة، وللكتابة البليغة من فائدة؛ فالأديب يُسَطِّرُ كتاباتٍ نافعةٍ لها وَقعٌ شَجِيٌ علىٰ قارئها، وذلك لما يمتلكه الأديب من: جمال الأسلوب وروعة الكلمات وحسن المعاني، (فالأدب يصوّر الخواطر، ويأسو الجِراح، ويؤلّف بين الألسنة والقلوب حتىٰ تتصافح الأيدي، ويعود البناء كما كان، أبيًّا لا ينال، قويًّا لا يلين.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٥١٤٦).

ولربّ خاطرة لكاتب أو همسة لشاعر، أحيت رممًا، وبعثت دارسًا، وردّت ذاهبًا وفجّرت الينابيع في صم الصخور)[١].

فمقالات الأدباء موضع اهتمام الناس -قراءة ومطالعة- علىٰ اختلاف طبقاتهم العلمية وميولاتهم الثقافية؛ وذلك لما تحتوي عليه من لذة يطرب لها القارئ، وفائدة تأخذ بالألباب، وحسن بيان يسمو بالأذواق.

ومن هنا: جاءت الحاجة إلىٰ إيجاد الأدباء، الذين بأدبهم ومقالاتهم تترقىٰ الأمم وتسعد المجتمعات، ويكون الأدباء فيها دعاة إلىٰ كل فضيلة وحربًا علىٰ كل شر ورذيلة.

وأول الطريق في تكوين الملكة الأدبية والكتابية تكون: بمعرفة المنهج الذي سلكه الأدباء وأهل هذا الشأن، فصاحب الدار أدرىٰ بما فيه، ولذلك حرصت في هذا الكتاب أن أنقل كلام كبار الأدباء في عصرنا ممن عرفوا بالأدب الرفيع والقلم البليغ، وأنقل ما سطروه من الوصايا والآداب والخبرات التي أتت بعد طول مِراس وسنين طِوال أمضوها في الكتابة والبحث والاطلاع

---

(١) مقتبس من كلام الإمام محمد البشير الإبراهيمي، انظر آثاره (٥/ ٢١٠).

ما يساعد في بناء الملكة الأدبية.

وليس لي في هذا الكتاب إلا الجمع والترتيب والتهذيب لكلام هؤلاء الأدباء وهم:

الأديب الكبير: مصطفىٰ لطفي المنفلوطي (المتوفىٰ: ١٣٤٣هـ).

والأديب البليغ: مصطفىٰ صادق الرافعي (المتوفىٰ: ١٣٥٦هـ).

وأمير البيان: شكيب أرسلان (المتوفىٰ:١٣٦٦ه).

والأديب: محمد كرد علي (المتوفىٰ: ١٣٧٢هـ).

والأديب: أحمد أمين (المتوفىٰ: ١٣٧٣هـ).

والعلامة: محمد الخضر حسين (المتوفىٰ: ١٣٧٧ هـ).

العلامة: محمد البشير الإبراهيمي (المتوفىٰ: ١٣٨٥هـ).

والأديب: أحمد حسن الزيات (المتوفىٰ: ١٣٨٨هـ).

والأديب: محمود محمد شاكر (المتوفىٰ: ١٤١٨هـ).

والأديب الفقيه: علي الطنطاوي (المتوفىٰ: ١٤٢٠هـ).

وقد قمت بترتيب هؤلاء الأدباء علىٰ حسب تواريخ وفياتهم، وترجمت لكل واحد منهم ترجمة موجزة حتىٰ لا يطول الكتاب.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن

يكون نافعًا لطلاب الأدب وشداة المعرفة وراغبي البيان والدعاة إلىٰ الله بالقلم والكتاب.

عثمان خليفة صديق

osmankhlifa@gmail.com



تمهيد
أهمية الصناعة الأدبية

يحسن قبل أن ننقل كلام الأدباء في كيفية تكوين الملكة الأدبية والكتابية أن نذكر أهمية صناعة الأدب ومكانته وأثره، ومن أفضل من تكلم في هذا الموضوع العلامة محمد الخضر حسين رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد قال رَحِمَهُ اللَّهُ في مقال له بعنوان: (أثر أدب اللغة في نجاح الدعوة إلىٰ الإصلاح):

(العلم في نفسه فضيلة، ومن أتقن علمًا من العلومِ المعدودة في وسائل السعادة، أصبح ركنًا من أركان نهضة الأمة، تنشرح الصدور لبقائه، وتحزن القلوب لفقده، ولكن العلم الذي يضيف إليه صاحبه الحذق في صناعة الأدب، يكون فضله أظهر، وأثره أقوىٰ وأشمل.

ولو سألت التاريخ عن العلماء الذين طار صيتهم في الآفاق، أو تركوا آثارًا لا تضعها يد إلا تناولتها يد أخرىٰ، لوجدت معظمهم من العلماء الذين خاضوا غمار أدب اللغة، وبلغوا فيه

غاية سامية. ذلك أن أدب العالم يجذب إلىٰ مجالسه الأذكياء من الطلاب، فيبذر علومه وآراءه في عقول خصبة، ويساعده علىٰ أن يقرر الحقائق بعبارات رصينة أنيقة، فتقع من النفوس وقع العذب الفرات من الكبد الحرّىٰ.

وإذا كان العالم غير الأديب يلقي المعاني في عبارات لا يراعي فيها إلا أن تكون دالة علىٰ المعنىٰ بمقتضىٰ وضعها العربي، فإن العالم الأديب يستطيع شيئًا آخر وراء ذلك، هو أن يصوغ المعاني في عبارات تألفها أذواق السامعين أو القارئين، وتهوي إليها أفئدتهم، فيكون لها في نفوسهم أثر لا يوجد مع العبارات الخالية من روح الأدب، وإن صحت دلالتها علىٰ المعنىٰ في نظر اللغويين والنحاة.

للأدب أثر في أن يكون وعظك ناجحًا، ورأيك نافذًا. وللأدب أثر في أن تسوق القصة، فتسرع القلوب إلىٰ ملاحظة ما حوته من عبرة. وللأدب أثر في أن تستقر الآراء العلمية في نفوس كانت قد عرضت عليها في غير أسلوب أدبي، فلم تسكن إليها.

فالأديب يحسن عقد المشابهة بين المعقولات والمحسوسات،

أو بين المعاني الخفية والمعاني الجلية، ويجيد الاقتباس من آيات القرآن الحكيم، ويضع الأمثال في المقامات الشبيهة بمواردها، وهو الذي يريد أن يتحدث عن المعنىٰ الواحد في المقام الواحد مرات متعددة، فيستطيع أن يعبر عنه في كل مرة بطريق يعرضه عليك في صورة جديدة، فتجد من الارتياح له ما لا تجده عندما يأتيك في صورته التي عرفته بها أول مرة.

ولو نظرت في المواعظ التي كانت تلقىٰ علىٰ الأمراء والوزراء ونحوهم من الرؤساء المستبدين، فيلاقونها بسكينة، أو يتقبلونها بقبول حسن، لوجدت أكثرها من قبيل المواعظ التي ينفث فيها الأدب شيئًا من روحه اللطيف، ولاسيما أدبًا يتألق في موعظة صادرة عن إخلاص.

وإذا كان أولو الأنظار السليمة يعرفون الحق في أي عبارة ظهر، ويدركون الحجة في أي مقال وردت، فإن في الناس من يرد عليه الباطل في زخرف من القول، فيحسبه حقا، وتتعرض له الشبهة في حلية من محاسن البيان، فلا يرتاب في أنها حجة، ذلك لأنه يتخيل أن بين البراعة في القول، والسداد في الرأي

صلةً لا تنقطع، فلا تراه يزن المعاني بميزان المنطق ليعلم صحيحها من سقيمها.

وهؤلاء الذين يستهويهم رونق الألفاظ أكثر من حكمة معانيها، ليسوا بقليل، فلا ينبغي لنا أن نستخف بهم، وندعهم لعصبة المضلين، يعرضون عليهم الآراء المنحدرة بهم في شقاء.

وإذا لم يكن لأولئك المضلين سبيل علىٰ المستضعفين سوىٰ أنهم يحبرون لهم القول تحبيرًا، فمن الميسور لدعاة الإصلاح أن يسابقوهم في مضمار البراعة، فإنهم متىٰ ألبسوا الدعوة إلىٰ الحق والفضيلة أساليب بديعة، أحرزوا الغاية، وأنقذوا أولئك المستضعفين من ضلال بعيد.

وقد كان رسول الله ﷺ يتخير لإبلاغ رسالته الملوك والرؤساء من عرفوا بالحكمة وفصاحة اللهجة، تعرف هذا حين تقف علىٰ أسماء أولئك المبعوثين، وتقرأ شيئًا من أحاديث دعوتهم؛ كقول العلاء الحضرمي للمنذر ابن ساوي ملك البحرين: «يا منذر! إنك عظيم العقل في الدنيا، فلا تصغرن عن الآخرة». وقول سليط بن عمرو لهوذة بن علي ملك اليمامة: «إن قومًا سعدوا برأيك، فلا تشق

به». وقول عمرو بن أمية الضمري للنجاشي: «إن عليّ القول، وعليك الاستماع، إنك كأنك في الرقة علينا منا، وكأنا بالثقة بك منك؛ لأناّ لم نظن بك خيرًا قط إلا نلناه، ولم نخفك علىٰ شيء إلا أمناه». وقول عبد الله بن حذافة لكسرىٰ: «قد ملك قبلك ملوك أهل الدنيا وأهل الآخرة، فأخذ أهل الآخرة بحظهم من الدنيا، وضيع أهل الدنيا حظهم من الآخرة، فاختلفوا في سعي الدنيا، واستووا في عدل الآخرة». وقول دحية ابن خليفة الكلبي لقيصر ملك الروم: «فاسمع بذلّ، ثم أجب بنصح، فإنك إن لم تذلل، لم تفهم، وإن لم تنصح، لم تنصف».

عني بأدب اللغة نفر تصدوا بعد للكتابة في العلم أو الاجتماع أو السياسة، وكانت آراؤهم بعيدة من الرشد، واستطاعوا أن يسوقوا بعض الشبان الغافلين إلىٰ غير حق، أو غير فضيلة، ويقذفوا بهم في إباحية هوجاء، ومن طباع هؤلاء القادة غير الراشدين أن يستخفوا بمن يقف في سبيلهم، ولو كان غزير العلم، قوي الحجة، إلا أن ينطق بأفصح من ألسنتهم، أو يكتب بأبرع من أقلامهم.

وإذا اتخذ بعض الكتاب أو الخطباء أدب اللغة سلاحًا يقطعون به سبيل الخير والفلاح، أفلا يجدر بدعاة الحق والفضيلة أن يسبقوا إلىٰ تقلد هذا السلاح، ويغوصوا في علم الأدب إلىٰ غاية بعيدة، ويعملوا لإعلاء شأن هذا العلم، حتىٰ تخرج لنا المعاهد الدينية والمدارس العلمية رجالًا يوردون الحجج في أساليب سائغة، ويزيحون عن الشبه والمغالطات ما تضعه علىٰ وجوهها من صبغة خادعة؟!.

ولم ننس أن في الشرق لهذا العهد رجالًا يجمعون بين حصافة الرأي، وطهارة القلب، وبلاغة القول، ويجاهدون في الإصلاح جهاد من لا يخافون لومة لائم، ولكنهم بالنظر إلىٰ الطوائف الذين يحاربون الهداية، ويصدون عن سبيل الله، لا يبلغون الكفاية. والقصد: أن نعد للدعوة إلىٰ الإصلاح قوة من الخطابة والكتابة تستطيع أن تقف في وجه كل دعاية لا تأتي بخير)[١].

---

(١) موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين (٥/ ٦٥-٦٨).

كلام الأديب الكبير:
مصطفى لطفي المنفلوطي[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن تكوين ملكة البيان:

(ذهب الناس في معنىٰ البيان مذاهب متفرقة واختلفوا في شأنه اختلافا كثيرًا ولا أدري علام يختلفون؟ وأين يذهبون؟ وهذا لفظه دال علىٰ معناه دلالة واضحة لا تشتبه وجوهها، ولا تتشعب مسالكها.

ليس البيان إلا الإبانة عن المعنىٰ القائم في النفس وتصويره في نظر القارئ أو مسمع السامع تصويرًا صحيحًا لا يتجاوزه ولا يقصر عنه، فإن علقت به آفة من تينك الآفتين فهو العيّ والحصر.

جهل البيان قوم فظنوا أنه الاستكثار من غريب اللغة ونادر

---

(١) هو مصطفىٰ لطفي بن محمد لطفي بن محمد حسن لطفي المنفلوطي: نابغة في الإنشاء والأدب، انفرد بأسلوب نقي في مقالاته وكتبه، له شعر جيد فيه رقة وعذوبة، ولد في منفلوط، وتعلم في الأزهر.

له من الكتب: (النظرات) و(في سبيل التاج) و(العبرات) وغيرها، توفي سنة: ١٣٤٣ هـ ١٩٢٤ م.

انظر: الأعلام للزركلي (٧/ ٢٣٩-٢٤٠).

الأساليب فأغصوا بها صدور كتاباتهم وحشوها في حلوقها حشوا يقبض أوداجها ويحبس أنفاسها، فإذا قدر لك أن تقرأها وكنت ممن وهبهم الله صدرًا رحبًا، وفؤادًا جلدًا، وجنانا يحتمل ما حمل عليه من آفات الدهر ورزاياه، قرأت متنا مشوشا من متون اللغة، أو كتابا مضطربا من كتب المترادفات.

وجهله آخرون فظنوا أنه الهذر في القول والتبسط في الحديث واقعا ذلك من حال الكلام ومقتضاه حيث وقع، فلا يزالون يجترون بالكلمة اجترار الناقة بجرتها، ويتمطقون بها تمطق الشفاه بريقتها، حتىٰ تسف، وتتبذل، وحتىٰ ما تكاد تسيغها الحلوق، ولا تطرف عليها العيون، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

يخيل إلي أن الكُتّاب في هذا العصر يكتبون لأنفسهم أكثر مما يكتبون للناس، وأن كتابتهم أشبه شيء بالأحاديث النفسية التي تتلجلج من نفس الإنسان حينما يخلو بنفسه، ويأنس بوحدته، فإني لا أكاد أرىٰ بينهم من يضع فمه علىٰ أذن السامع وضعا محكما، وينفث في روعه ما يريد أن ينفث من خواطر قلبه، وهواجس نفسه.

البيان صلة بين متكلم يفهم، وسامع يفهم، فبمقدار تلك الصلة من القوة والضعف تكون منزلة الكاتب من الرفعة

والسقوط، فإن أردت أن تكون كاتبًا فاجعل هذه القاعدة في البيان قاعدتك، واحرص الحرص كله علىٰ أن لا يخدعك عنها خادع فتسقط مع الساقطين.

ما أصيب البيان العربي بما أصيب به إلا من ناحية الجهل بأساليب اللغة العربية، ولا أدري كيف يستطيع الكاتب أن يكون كاتبًا عربيًا قبل أن يطلع علىٰ أساليب العرب في أوصافهم ونعوتهم، ومدحهم وهجوهم، ومحاوراتهم ومساجلاتهم، وقبل أن يعرف كيف كانوا يعاتبون ويؤنبون، ويعظون وينصحون، ويتغزلون وينسبون، ويستعطفون ويسترحمون، وبأي لغة يحاول أن يكتب ما يريد إن لم يستمد تلك الروح العربية استمدادا يملأ ما بين جوانحه حتىٰ يتدفق مع المداد من أنبوب يراعه علىٰ صفحات قرطاسه.

إني لأقرأ ما كتبه الجاحظ وابن المقفع والصاحب الصابي والهمذاني والخوارزمي وأمثالهم من كتاب العربية الأولىٰ، ثم أقرأ ما خطه هؤلاء الكاتبون في هذه الصحف والأسفار فأشعر بما يشعر به المنتقل دفعة واحدة من غرفة محكمة نوافذها، مسبلة ستورها، إلىٰ جو يسيل قرا وصرا، ويترقرق ثلجا وبردا.

ذلك لأني أقرأ لغة لا هي بالعربية فأغتبط بها، ولا هي بالعامية فأتفكه بهذيانها ومجونها.

رأيت أكثر الكاتبين في هذا العصر بين رجلين، رجل يستمد روح كتابته من مطالعة الصحف وما يشاكلها في أساليبها من المؤلفات الحديثة والروايات المترجمة، وربما كان كتاب تلك المخطوطات أحوج من قارئيها إلىٰ الاستمداد، فإذا علقت بنفسه تلك الملكة الصحفية ألقىٰ بها في روع قارئ كتابته أدون مما أخذها فيدلي به آخذها كذلك إلىٰ غيره أسمج صورة وأكثر تشويها، وهكذا حتىٰ لا يبقىٰ فيها من روح العربية إلا كما يبقىٰ من الأطلال البالية بعد كر الغداة ومر العشي، وطالب قصارىٰ ما يأخذ عن أستاذه نحو اللغة وصرفها وبديعها وبيانها ورسمها وإملاؤها ومفرداتها ومتونها ومؤتلفاتها ومختلفاتها وغير ذلك من آلاتها وأدواتها، أما روحها وجوهرها فأكثر أساتذة البيان في المدارس علماء غير أدباء، وحاجة طالب اللغة إلىٰ أستاذ يفيض عليه روح اللغة ويوحي له بسرها، ويفضي إليه بلبها وجوهرها، أكثر من حاجته إلىٰ أستاذ يعلمه وسائلها وآلاتها، وعندي أن لا فرق بين أستاذ الأخلاق وأستاذ البيان، فكما أن طالب الأخلاق

لا يستفيدها إلا من أستاذ كملت أخلاقه، وحسنت آدابه، كذلك طالب البيان لا يستفيده إلا من أستاذ مبين.

ولا يقذفن في روع القارئ أني أحاول استلاب فضل الفاضلين أو أني أنكر على فصحاء هذه اللغة ما وهبهم الله من نعمة البيان، فما هذا أردت، ولا إليه ذهبت، وإنما أقول إن عشرة من الكتاب المجيدين، وخمسة من الشعراء البارعين، قليل في بلد يقولون عنه إنه بلد اللغة العربية اليوم ومرعاها الخصيب.

وبعد فإني لا أرى لك يا طالب البيان العربي سبيلا إليه إلا مزاولة المنشئات العربية منثورها ومنظومها، والوقوف بها وقوف المتثبت المتفهم لا وقوف المتنزه المتفرج، فإن رأيت أنك قد شغفت بها، وكلفت بمعاودتها والاختلاف إليها، وأن قد لذّ لك منها ما يلذّ للعاشق من زورة الطيف في غرة الظلام، فاعلم أنك قد أخذت من البيان بنصيب فامض لشأنك ولا تلو على شيء مما وراءك حتى تبلغ من طلبتك ما تريد.

ولا تحدثنك نفسك أني أحملك على مطالعة المنشئات العربية لأسلوب تسترقه، أو تركيب تختلسه، فإني لا أحب أن

تكون سارقا ولا مختلسا، علىٰ أنك إن ذهبت إلىٰ ما ظننت أني أذهب إليه في نصيحتك لم يكن دركك دركا، ولا بيانك بيانا، وكان كل ما أفدته من ذلك أن تخرج للناس من البيان صورة مشوهة لا تناسب بين أجزائها، وبردة مرقعة لا تشابه بين ألوانها، وإنما أريد أن تحصل لنفسك ملكة في البيان راسخة تصدر عنها آثارها بصورة واحدة حتىٰ لا يكون شأنك شأن أولئك الذين قد علقت ذاكرتهم بطائفة من منثور العرب ومنظومها فقنعوا بها، وظنوا أنهم قد بلغوا من اللغة ما أرادوا، فإذا جد الجد وأرادوا أنفسهم علىٰ الإفصاح عن شيء من خلجات نفوسهم رجعوا إلىٰ تلك المحفوظات ونبشوا دفائنها، فإن وجدوا بينها ما يدل علىٰ المعنىٰ الذي يريدونه انتزعوه من مكانه انتزاعا، وحشروه في كتابتهم حشرا، وإلا فإما أن يتبذلوا باستعمال التراكيب الساقطة المشنوعة، أو يهجروا تلك المعاني إلىٰ أخرىٰ غيرها لا علاقة بينها وبين سابقاتها ولاحقاتها، فهم لا بد لهم من إحدىٰ السوأتين، إما فساد المعاني واضطرابها، أو هجنة التراكيب وبشاعتها.

فاحذر أن تكون واحدا منهم أو أن تصدق ما يقولونه في تلمس العذر لأنفسهم من أن اللغة العربية أضيق من أن تتسعَ لجميع المعاني المستحدثة، وأنهم ما لجؤوا إلىٰ التبذل في التراكيب إلا لاستحالة الترفع فيها، فاللغة العربية أرحب صدرا من أن تضيق بهذه المعاني العامة المطروقة بعدما وسعت من دقائق العلوم ما لا قبل لغيرها باحتماله وقدرت من هواجس الصدور وأحاديث النفوس وسرائر القلوب علىٰ الذي عيت به اللغات القادرات...

واعلم أنه لا بد لك من حسن الاختيار فيما تريد أن تزاوله من المنشئات العربية فليس كل متقدم ينفعك، ولا كل متأخر يضرك، ولا أحسبك إلا واقفا بين يدي هذا الأمر موقف الحيرة والاضطراب؛ لأن حسن الاختيار طلبة تتعثر بين يديها الآمال، وتقطع دونها أعناق الرجال، فالجأ في ذلك إلىٰ فطاحل الأدباء الذين تعرف ويعرف الناس منهم ذوقا سليما، وقريحة صافية، وملكة في الأدب، كأنها مصفاة الذهب، فإن فعلت وكنت ممن وهبهم الله ذكاء وفطنة وقريحة خصبة لينة صالحة لنماء ما يلقىٰ فيها من البذور الطيبة عدت وبين جنبيك ملكة في البيان زاهرة

يتناثر منها منثور الأدب ومنظومه تناثر الورود والأنوار، من حديقة الأزهار[(١)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في موضع آخر:

(ليس البيان ميدانًا يتبارىٰ فيه اللغويون والحُفاظ أيهم أكثر مادة في اللغة وأوسع اطلاعًا علىٰ مفرداتها وتركيبها وأقدر علىٰ استظهار نوادرها وشواذها ومترادفاتها ومتوارداتها، ولا متحفًا لصور الأساليب وأنواع التراكيب، ولا مخزنًا لحقائب المجازات والاستعارات، وغياب الشواهد والأمثال، فتلك أشياء خارجة عن موضوع البيان وجوهره، إنما يُعنَىٰ بها المؤلفون والمدونون وأصحاب القواميس والمعاجم وواضعو كتب المترادفات ومصنفو تواريخ اللغة وتواريخ آدابها، أما البيان فهو تصوير المعنىٰ القائم في النفس تصويرًا صادقًا يمثلهُ في ذهن السامع كأنهُ يراهُ ويلمسهُ لا يزيد علىٰ ذلك شيئًا، فإن عجز الشاعر أو الكاتب مهما كبر عقله وغزر علمه واحتفل ذهنه عن أن يصل بسامعه إلىٰ هذه الغاية، فهو إن شئت أعلم العلماء، أو أفضل الفُضلاء، أو أذكىٰ الأذكياء، ولكنه ليس بالشاعر ولا بالكاتب.

---

(١) النظرات (١/ ٢٩٦-٣٠١).

ليس من الرأي ولا من المعقول أن ينظم الشعراء الشعر ويكتب الكتاب الرسائل في هذا العصر عصر الحضارة والمدنية وبين هذا الجمهور الذي لا يعرف أكثر من العامية إلا قليلًا باللغة التي كان ينظم بها امرؤ القيس وطرفة والقطامي والخطفىٰ ورؤبة والعجاج ويكتب بها الحجاج وزياد وعبد الملك بن مروان والجاحظ والمعري في عصور العربية الأولىٰ، فليس عصرنا كعصرهم ولا جمهورنا كجمهورهم، وأحسب لو أنهم بعثوا اليوم من أجداثهم لما كان لهم بد من أن ينزلوا إلىٰ عالمنا الذي نعيش فيه ليخاطبونا بما نفهم أو يعودوا إلىٰ مراقدهم من حيث جاؤوا.

ليست الأساليب اللغوية دينًا يجب أن نتمسك به ونحرص عليه حرص النفس علىٰ الحياة، إنما هي أداة للفهم وطريق إليه لا تزيد علىٰ ذلك ولا تنقص شيئًا.

يجب أن نحافظ علىٰ اللغة باتباع قوانينها والتمسك بأوضاعها ومميزاتها الخاصة بها ثم نكون أحرارًا بعد ذلك في التصور والتخيل واختيار الأسلوب الذي نريد.

يجب أن يشف اللفظ عن المعنىٰ شفوف الكأس الصافية عن

الشراب حتىٰ لا يرىٰ الرائي بين يديه سوىٰ عقل الكاتب ونفس الشاعر، وحتىٰ لا يكون للمادة اللفظية شأن عنده أكثر مما يكون للمرآة من الشأن في تمثيل الصور والمخائل.

يجب أن يتمثل المعنىٰ في ذهن المُتكلم قبل أن يتمثل اللفظ، حتىٰ إذا حسن الأول أفاض علىٰ الثاني جماله ورونقه، فاللفظ لا يجمل حتىٰ يجمل المعنىٰ، بل لا مفهوم للفظ الجميل إلا المعنىٰ الجميل.

لو لم يكن للفصاحة قانون يرجع إليه من يريد معرفتها ومقياس تقاس عليه لوجب أن يكون قانونها العقلي أن يترك القائل في نفس السامع الأثر الذي يريده، فإن عجز عن ذلك فلا أقل من أن يصور له المعنىٰ القائم في نفسه، فإن لم يكن هذا ولا ذاك فاحتراف أي حرفة من الحرف مهما صغر قدرها واتّضح شأنها أعود بالنفع علىٰ الأمة وأجدىٰ عليها من حرفة القلم.

لا يبك شاعر بعد اليوم ولا كاتب سقوط حظه في الأمة ولا يقض حياته ناعيًا عليها جهلها وقصورها كلما رآها منقبضة عنه غير حافلة به ولا متطلعة لا يقنعها من قلم الشاعر أن يرن علىٰ

صفحة القرطاس دون أن يطربها ويملك عواطفها، ولا من قلم الكاتب أن يسود وجه الصحف دون أن ينير لها أذهانها ويغذي عقولها ومداركها، فإن كان لا بد باكيًا فليبك علىٰ نفسه ولينع عجزه وقصوره، وليعلم أنه لو استطاع أن يكتب للأمة ما تفهم لاستطاعت الأمة أن تفهم عنه ما يقول.

إنني لا ألوم علىٰ الركاكة والفهاهة الأغبياء الذين أظلمت أذهانهم فأظلمت أقلامهم وظلمة القلم أثر من آثار ظلمة العقل، ولا الجاهلين الذين لم يدرسوا قوانين اللغة ولم يمارسوا أدبها ولم يتشبعوا بروح منظومها ومنثورها، ولا العاجزين الذين غلبتهم إحدىٰ اللغات الأجنبية علىٰ أمرهم قبل الإلمام بشيء من أدب لغتهم فأصبحوا إذا ترجموا ترجموا ترجمة حرفية ليس فيها مميز واحد من مميزات العربية، ولا خاصة من خواصها وإذا كتبوا كتبوا بأسلوب عربيِّ الحروف أعجميِّ كلِّ شيء بعد ذلك، فهؤلاء جميعًا لا حول لنا فيهم ولا حيلة؛ لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا غير ذلك، إنما ألوم المُتأدبين القادرين الذين عرفوا اللغة واطلعوا علىٰ أدبها وفهموا سر فصاحتها وأنقم منهم عدولهم عن

المحجة البيضاء في البيان إلىٰ الجمجمة والغمغمة فيه، وأنعىٰ عليهم نقص القادرين علىٰ التمام[١].

ويقول في موضع آخر:

(المتأدب شاعرا كان أو كاتبا لا يكمل أدبه ولا تصفو قريحته ولا تلمع صفحة بيانه ولا تنحل عقدة لسانه إلا إذا تمهل في روض البيان، فاقتطف ألوان زهراته من أنواع شجراته، وأن الشاعر لا يغنيه المدح والهجاء عن البكاء والرثاء، ولا العتاب والود عن التشبيه والوصف، ولا البكاء علىٰ المنازل والديار وفراق الأحبة وموت الموتىٰ عن البكاء علىٰ المجد الضائع، والملك الساقط، والعرض المغلوب، والشرف المسلوب، كما لا يغنيه وصف السيف في رونقه وبهائه عن وصفه في حدته ومضائه، ولا وصف البدر في جماله ورُوائه عن وصفه في عزته وخيلائه، ولا تشبيه قوادم الحمامة عن تشبيه ذنب القطاة، ولا تصوير ذكاء الفيل عن تمثيل إحساس النملة، وأن الكاتب لا يبلغ مرتبة البيان ولا يصل إلىٰ منزلة القدرة علىٰ الإفصاح عن أغراضه ومراميه في جميع مواقفه ومذاهبه حتىٰ يأخذ بأزِمَّة القول جميعها ويشتمل علىٰ

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٥-١٢) بتصرف.

أساليب الكلام بأنواعه، ويعلم أن الكتابة في العلم غير الكتابة في الأدب، وأن للخطب أسلوبا غير أسلوب الكتب، وأن لكل نوع من أنواع العلوم والفنون طريقا في الكتابة خاصا به لا يفارقه إلىٰ غيره ولا يشركه فيه سواه، وأن الانتقاد غير الهجاء والهجاء غير التهكم والتهكم غير التأنيب والتأنيب غير الإنذار والتهديد....

...لن تستقر ملكة البيان في النفس حتىٰ يقف المتأدب بطائفة من شريف القول، منظومه ومنثوره وقوف المستثبت المستبصر الذي يرىٰ المعنىٰ بعيدا فيمشي إليه أو نازحا فيستدنيه أو محلقا فيصعد إليه أو متغلغلا فيتمشىٰ في أحشائه حتىٰ يصيب لبه ولا يزال يعالج ذلك علاجا شديدا ينضح له جبينه وتنبهر له أنفاسه حتىٰ تتكيف ملكته بالكيفية التي يريدها....

والشعر المشتمل علىٰ وصف الجمال، والنثر المتضمن تصوير دقائق المعاني النفسية والخواطر القلبية ما دام بعيدًا عن فاحش القول وهجره، فهو أعون الذرائع علىٰ تنمية ملكة الفصاحة والبيان في نفس الناشئ)[1].

---

(١)المصدر السابق (٢/ ١٥١-١٥٤) بتصرف.

وأختم كلامه بحديثه عن تجربته في الكتابة، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ:

(ما تراه في رسائل النظرات منثرًا ههنا وههنا قد شعر به قلبي، ففاض به قلمي من حيث لا أكذب الناس عن نفسي، ولا أكذب نفسي عنها،...

وعندي أن الكاتب المسخر الذي لا شأن له إلا أن يكتب ما يفضي به الناس إليه صانع غير كاتب، ومترجم غير قائل، لا فرق بينه وبين صائغ الذهب وثاقب اللؤلؤ، كلاهما ينظم ما لا يملك، ويتصرف فيما لا شأن له فيه...

ولا تحيا كتابة كاتب سيعلم الناس من أمره بعد قليل أنه يكذبهم عن نفسه وعن أنفسهم، وأنه روَّاغ متخلّج يأمرهم اليوم بما ينهاهم عنه غدًا، ويرىٰ في ساعة ما لا يرىٰ في أخرىٰ، وأنه يستبكىٰ ولا يبكي، ويسترحم ولا يرحم، ويحرك النفوس وهو ساكن، ويثير الثائرة وهو سالم، فيستريبون به، ويحارون في مصادره وموارده، ثم يحملون أمره علىٰ شر حاليه، ثم ينقطع ما بينهم وبينه، والبيان ليس سلعة من السلع التي يتنقل بها تجارها من سوق إلىٰ سوق، ومن حانوت إلىٰ آخر، ولكنه حركة طبيعية

من حركات النفس تصدر عنها عفوًا بلا تكلفٍ، ولا تعمل صدور النور عن الشمس، والصدىٰ عن الصوت، والأريج عن الزهر، وشعاع لامع يشرق في نفس الأديب إشراق المصباح في زجاجته، وينبوع ثرار يتفجر في صدره، ثم يفيض علىٰ أسلات قلمه، وهو أمر وراء العلم واللغة والمحفوظات والمقروءات والقواعد والحدود،...

وليس البيان ذهاب كلمة، ومجيء أخرىٰ، ولا دخول حرف وخروج آخر، وإنما هو النظم والنسق والانسجام، والاطراد والماء والرونق واستقامة الغرض وتطبيق المفصل، والأخذ بالنفوس، وامتلاك أزمة الهواء، فإن صح ذلك لامرئ، فهو الكاتب القدير، أو الشاعر الجليل، فإن زلت به قدم في وضع حرف مكان حرف، أو غلبه علىٰ لسانه دخيل، أو خرج من يده أصيل، أو كان ممن يفوته العلم ببعض قواعد اللغة أو بعض وجوه الاستعمال فيها، كان ذلك عيبًا لاحقًا بعلمه أو بحافظته، لا ببيانه وفصاحته، ومتىٰ صدر القائل في قوله عن سجية وطبع أصبح شأنه شبيهًا بشأن العرب الأولين، وكان من شأنهم أن

يسبقهم إلىٰ كلامهم الخطأ اللفظي في بعض الأحيان، وكان السبب في ذلك كما يقول أبو علي الفارسي: أنهم كانت تهجم بهم طباعهم علىٰ ما ينطقون به، فربما استهواهم الشيء، فزاغوا به عن القصد من حيث لا يشعرون، وكما أن الجسم لا يغير صورته، ولا يقلب سحنته أن تطير منه ذرة، وتحل أخرىٰ محلها لتمثلها كذلك لا يغير صورة الكلام، ولا يذهب بنسقه خروج أصيل، أو دخول دخيل...

للبيان وسائل كثيرة غير وسيلة اللغة، فمن لا يأخذ نفسه بجميع وسائله لا يصل إليه، والتربية العلمية كالتربية الجسمية، فكما أن الطفل لا ينمو جسمه، ولا ينشط ولا تتبسط أعضاؤه، ولا تنتشر القوة في أعصابه، إلا إذا نشأ في لهوه ولعبه، وقفزه ووثبه، كذلك الكاتب لا تنمو ملكة الفصاحة علىٰ لسانه، ولا تأخذ مكانها من نفسه، إلا إذا ملك الحرية في التصرف والافتتان والذهاب في مذاهب القول، ومناحيه كما يشاء وحيث يشاء، دون أن يسيطر عليه في ذلك مسيطر إلا طبعه وسجيته، واللغوي لا يزال يحوط نفسه بالحذر والخوف، والوساوس والبلابل،

فَإِنْ مَشَىٰ خُيِّل إليه أنه يمشي علىٰ رملة ميثاء، وإن تحرك خيل إليه أن تحت قدميه حفرة جوفاء، حتىٰ يقعد به خوفه ووسواسه عن الغاية التي يريد الوصول إليها، علىٰ أن الكاتب لا يبلغ مرتبة الكتابة إلا إذا نظر إلىٰ الألفاظ بالعين التي يجب أن ينظر بها إليها، فلم يتجاوز بها منزلتها الطبيعية التي تنزلها من المعاني، وهي أن تكون خدمًا لها وخولًا، وأثوابًا وظروفا، فإذا كتب تركها وشأنها، وأغفل أمرها حتىٰ تأتي بها المعاني وتقتادها طائعةً مرغمة، والمعاني هي جوهر الكلام ولبه، ومزاجه وقوامه، فما شغل الكاتب من همته بغيرها أزرىٰ بها حتىٰ تُفلت من يده، فيفلت من يده كل شيء.

وبعد فالعلم والمحفوظات والمقروءات والمادة اللغوية، والقواعد النحوية، إنما هي أعوان الكاتب علىٰ الكتابة ووسائله إليها، فالجاهل لا يكتب شيئًا؛ لأنه لا يعرف شيئًا، ومن لا يضطلع بأساليب العرب ومناحيها في منظومها ومنثورها سرت العجمة إلىٰ لسانه، أو غلبته العامية علىٰ أمره، ومن قلّ محفوظه من المادة اللغوية قصرت يده عن تناول جميع ما يريد تناوله من المعاني، ومن

جهل قانون اللغة أَغْمَضَ الْأَغْرَاضَ وَأَبْهَمَهَا، أو شَوَّهَ جَمَالَ الْأَلْفَاظِ وَهَجَّنَهَا، وَلَكِن لَيْسَتْ هَيَ جَوْهَرُ الْفَصَاحَةِ، وَلَا حقيقة البيان، فأكثر القائمين عليها، والمضطلعين بها، لا يكتبون ولا ينظمون، فإن فعلوا كان غاية إحسان المحسن منهم أن يكون كصانع التماثيل الذي يصب في قالبه تمثالًا سويًّا متناسب الأعضاء، مستوي الخلق، إلّا أنه لا روح فيه ولا جمال له؛ لأنه ينقصهم بعد ذلك كله أمر هو سر البيان ولبه، وهو الذوق النفسي والفطرة السليمة، وأنىٰ لهم ذلك وما دخلت الفلسفة أيا كان نوعها علىٰ عمل من أعمال الفطرة إلا أفسدته، وما خالط التكلف عملًا من أعمال الذوق إلا شوَّه وجهه، وذهب بحسنه ورُوائه...

ولقد كان من أكبر ما أعانني علىٰ أمري في كتابة رسائل النظرات أشياء أربعة أنا ذاكرها لعل المتأدب يجد في شيء منها ما ينتفع به في أدبه:

أولها: أني ما كنت أحتفل من بين تلك الأحاديث الثلاثة بحديث اللسان ولا حديث العقل، أي: إنني ما كنت أتكلف لفظا غير اللفظ الذي يقتاده المعنىٰ ويتطلبه، ولا أفتش عن معنىٰ غير

المعنىٰ الطبيعي القائم في نفسي، بل كنت أحدث الناس بقلمي كما أحدثهم بلساني، فإذا جلست إلىٰ مكتبتي خيل إلي أن بين يدي رجلا من عامة الناس مقبلا علي بوجهه، وأن من أشهىٰ الأشياء وآثرها في نفسي أن لا أترك صغيرا ولا كبيرا مما يجول بخاطري حتىٰ أفضي به إليه، فلا أزال أتلمس الحيلة إلىٰ ذلك، ولا أزال أتأتىٰ إليه بجميع الوسائل وألح في ذلك إلحاح المشفق المجد حتىٰ أظن أني قد بلغت من ذلك ما أريد، فلا أقيد نفسي بوضع مقدمة الموضوع في أوله، ولا سرد البراهين علىٰ الصورة المنطقية المعروفة، ولا التزام استعمال الكلمات الفنية التزاما مطردا إبقاء علىٰ نشاطه وإجمامه وإشفاقا عليه أن يمل ويسأم فينصرف عن سماع الحديث أو يسمعه فلا ينتفع به.

وثانيها: أني ما كنت أحمل نفسي علىٰ الكتابة حملا، ولا أجلس إلىٰ مكتبتي مطرقا مفكرا: ماذا أكتب اليوم، وأي الموضوعات أعجب وأغرب، وألذ وأشوق، وأيها أعلق بالنفوس، وألصق بالقلوب؟ بل كنت أرىٰ فأفكر فأكتب فأنشر ما أكتب فأرضي الناس مرة وأسخطهم أخرىٰ من حيث لا أتعمد سخطهم، ولا أتطلب رضاهم.

وثالثها: أني ما كنت أكتب حقيقة غير مشوبة بخيال، ولا خيالا

غير مرتكز علىٰ حقيقة؛ لأني كنت أعلم أن الحقيقة المجردة من الخيال لا تأخذ من نفس السامع مأخذا، ولا تترك في قلبه أثرا....

ورابعها: أني كنت أكتب للناس لا لأعجبهم، بل لأنفعهم، ولا لأسمع منهم أنت أحسنت، بل لأجد في نفوسهم أثرا مما كتبت[١].

---

(١) مقدمة النظرات (١/ ٣١-٤٩). بتصرف.

كلام الأديب
مصطفى صادق الرافعي(١) رَحِمَهُ اللَّهُ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالة بعث بها إلىٰ أحد أصدقائه يرشده فيها إلىٰ الطريق لكي يكون أديبًا:

(أيّها الفاضلُ: إنّ أعمالي كثيرةٌ في هذه الأيام ولذا أراني أبطأتُ في الرد علىٰ كتابكَ، وإنّي مجيبك عنهُ بإيجازٍ، لأنّ ما سألتَ عنهُ يصعبُ التبسّطُ فيه علىٰ وجه واحد.

إنّكَ تريدُ امتلاكَ ناصية الأدب -كما تقولُ-، فينبغي أن تكون لك مواهبُ وراثية" تؤديك إلىٰ هذه الغاية، وهي مالا يُعرف إلا بعد أن

---

(١) هو مصطفىٰ صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعىٰ: عالم بالأدب، شاعر، من كبار الكتاب. أصله من طرابلس الشام، ومولده في «بهتيم» بمصر سنة ١٨٨١م، أصيب بصمم فكان يكتب له ما يراد مخاطبته به، شعره نقي الديباجة، ونثره من الطراز الأول.

له (ديوان شعر) ثلاثة أجزاء، و(تاريخ آداب العرب) جزآن، ثالثهما (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) و(تحت راية القرآن) و(رسائل الأحزان) وغيرها من المؤلفات، توفي في طنطا (بمصر) سنة: ١٣٥٦ هـ، ١٩٣٧ م).

انظر: الأعلام للزركلي (٧/ ٢٣٥).

تشتغل بالتحصيل زمنًا، فإن ظهر عليك أثرها وإلا كنت أديبًا كسائر الأدباء، الذين يستعيضون من الموهبة بقوّة الكسب والاجتهاد.

فإذا رغبت في أقرب الطرق إلىٰ ذلك فاجتهد أن تكون مفكّرًا منتقدًا، وعليك بقراءة كتب المعاني قبل كتب الألفاظ، وادرس ما تصل إليه يدك من كتب الاجتماع والفلسفة الأدبية في لغة أوربية أو فيما عرّب منها.

واصرف همّكَ من كتب الأدب العربي -بادئ ذي بدء- إلىٰ كتاب كليلةَ ودمنة والأغاني ورسائل الجاحظ وكتاب الحيوان والبيان والتبيين لهُ، وتفقّه في البلاغة بكتاب: المثل السائر، وهذا الكتابُ وحدهُ يكفل لك ملكة حسنة في الانتقاد الأدبي، وقد كنتُ شديد الولع به.

ثمّ عليك بحفظ الكثير من ألفاظ كتاب نُجعة الرائد لليازجي والألفاظ الكتابيّة للهمذانيّ، وبالمطالعةِ في كتاب يتيمةِ الدهر للثعالبيّ والعقد الفريد لابن عبدربه وكتاب زهر الآداب الذي بهامشه.

وأشيرُ عليك بمجلّتين تُعنىٰ بقراءتهما كل العناية المقتطف والبيان، وحسبك (الجريدة) من الصحف اليومية و(الصاعقة)

من الأسبوعية، ثم حسبك ما أشرتُ عليك به فإنّ فيه البلاغ كلّه، ولا تنسَ شرح ديوان الحماسة وكتاب نهج البلاغة فاحفظ منهما كثيرًا.

ورأسُ هذا الأمر بل سرّ النجاح فيه أن تكون صبورًا، وأن تعرف أن ما يستطيعه الرجل لا يستطيعه الطفل إلا متىٰ صار رجلًا، وبعبارة صريحة إلا من انتظر سنوات كثيرة.

فإن دأبت في القراءة والبحث، وأهملت أمر الزمن -طال أو قصر- انتهىٰ بك الزمن إلىٰ يوم يكون تاريخًا لمجدك، وثوابًا لجدّكَ)[1].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جواب آخر عن كيفية تكوين الملكة الكتابية:

(الإنشاء لا تكون القوة فيه إلا عن تعب طويل في الدرس وممارسة الكتابة والتقلب في مناحيها، والبصر بأوضاع اللغة، وهذا عمل كان المرحوم الشيخ «محمد عبده» يقدر أنه لا يتم للإنسان في أقل من عشرين سنة.

فالكاتب لا يبلغ أن يكون كاتبًا حتىٰ يبقىٰ هذا العمر في الدرس وطلب الكتابة.

---

(١) رسائل الرافعي لأبي رية، طبعة الدار العمرية (ص١٥-١٦).

فإذا أوصيتك فإني أوصيك أن تكثر من قراءة القرآن ومراجعة «الكشاف[(١)]».

ثم إدمان النظر في كتاب من كتب الحديث «كالبخاري» أو غيره، ثم قطع النفس في قراءة آثار «ابن المقفع» «كليلة ودمنة» «واليتيمة» و«الأدب الصغير»، ثم رسائل «الجاحظ، وكتاب «البخلاء» ثم «نهج البلاغة» ثم إطالة النظر في كتاب «الصناعتين» و«المثل السائر» لابن الأثير، ثم الاكثار من مراجعة «أساس البلاغة» للزمخشري.

فإن نالت يدك مع ذلك كتاب الأغاني أو أجزاء منه والعقد الفريد وتاريخ الطبري فقد تمت لك كتب الأسلوب البليغ.

اقرأ القطعة من الكلام مرارًا كثيرة، ثم تدبرها، وقلب تراكيبها، ثم احذف منها عبارة أو كلمة، وضع ما يسد سدها ولا يقصر عنها، واجتهد في ذلك، فإن استقام لك الأمر فترق إلىٰ درجة أخرىٰ، وهي أن تعارض القطعة نفسها بقطعة تكتبها في

---

(١) وهو (تفسير الزمخشري) وهو معتزلي، ولذلك يحذر من يقرأ فيه من اعتزالياته.

معناها، وبمثل أسلوبها، فإن جاءت قطعتك ضعيفة فخذ في غيرها، ثم غيرها، حتىٰ تأتي قريبًا من الأصل أو مثله.

اجعل لك كل يوم درسا أو درسين علىٰ هذا النحو فتقرأ أولًا في كتاب بليغ نحو نصف ساعة، ثم تختار قطعة منه فتقرأها حتىٰ تقتلها قراءة، ثم تأخذ في معارضتها علىٰ الوجه الذي تقدم -تغيير العبارة أولا ثم معارضة القطعة كلها ثانيًا- واقطع سائر اليوم في القراءة والمراجعة.

ومتىٰ شعرت بالتعب فدع القراءة أو العمل، حتىٰ تستجم ثم ارجع إلىٰ عملك ولا تهمل جانب الفكر والتصوير وحسن التخييل.

هذه هي الطريقة ولا أرىٰ لك خيرا منها، وإذا رزقت التوفيق فربما بلغت مبلغا في سنة واحدة:

وأول رأيك أن تستفيد وآخر رأيك أن تجتهد

هذا بيت عرض لي الآن فربما كان خلاصة الوصية.

... وفي الختام أرجو أن توفق بما تحاول)[1].

---

(١) المصدر السابق (ص٤٠-٤١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جواب آخر:

(أما الدستور الكتابي الذي طلبته فالقول فيه طويل، ولكن خذ كتابًا واحدًا كالعقد الفريد لابن عبد ربه فاقرأه، واحفظ كل ما تستحسن منه حفظًا كحفظ القرآن، لا تدع خبراً ولا كلامًا ولا شعرًا من كل ما ترىٰ فيه جزالة وسبكا وطرافة ومعنىٰ، فإنك لا تفرغ من ذلك ولا تنقل الكتاب إلىٰ رأسك حتىٰ تنقلب شيئا جديدًا، وقد علمت أن صاحب الصاعقة[1] يحفظ الكتاب كله، وأنه به وحده صار كاتبًا له ديباجته التي يتواصفونها، ولا تنس أن الغرض الأول هو الأسلوب ثم يأتي الغرض الآخر مما لا بد فيه من الدرس العلمي في كتب كثيرة، فاجتهد في مادة الأسلوب فإنها هي المظهر وبها التمييز بين الكُتّاب، وسر خطوة خطوة إذا أردت أن تقطع الطريق إلىٰ آخرها، واجعل شعارك هذه الكلمة وهي: أن النبوغ صبر طويل)[2].

وأختم بمقال له طويل عن الأدب والأديب، ومما جاء فيه مما له تعلق بملكة البيان:

(البيان صناعة الجمال في شيء جماله هو من فائدته،

---

(١) هو: أحمد فؤاد، وكان كاتبًا بليغًا.

(٢) رسائل الرافعي لأبي ريه (ص ١٢٢).

وفائدته من جماله؛ فإذا خلا من هذه الصناعة التحق بغيره، وعاد بابًا من الاستعمال بعد أن كان بابًا من التأثير؛ وصار الفرق بين حاليه كالفرق بين الفاكهة؛ إذ هي باب من النبات، وبين الفاكهة إذ هي باب من الخمر؛ ولهذا كان الأصل في الأدب البيان والأسلوب في جميع لغات الفكر الإنساني، لأنه كذلك في طبيعة النفس الإنسانية.

فالغرض الأول للأدب المبين أن يخلق للنفس دنيا المعاني الملائمة لتلك النزعة الثابتة فيها إلىٰ المجهول وإلىٰ مجاز الحقيقة، وأن يلقي الأسرار في الأمور المكشوفة بما يتخيل فيها، ويرد القليل من الحياة كثيرًا وافيًا بما يضاعف من معانيه، ويترك الماضي منها ثابتًا قارًا بما يخلد من وصفه، ويجعل المؤلم منها لذًّا خفيفًا بما يبث فيه من العاطفة، والمملول ممتعًا حلوًا بما يكشف فيه من الجمال والحكمة، ومدار ذلك كله علىٰ إيتاء النفس لذة المجهول التي هي في نفسها لذة مجهولة أيضًا؛ فإن هذه النفس طلعة متقلبة، لا تبتغي مجهولًا صرفًا ولا معلومًا صرفًا، كأنها مدركة بفطرتها أن ليس في الكون صريح مطلق ولا

خفي مطلق؛ وإنما تبتغي حالة ملائمة بين هذين، يثور فيها قلق أو يسكن منها قلق.

وأشواق النفس هي مادة الأدب؛ فليس يكون أدبًا إلا إذا وضع المعنىٰ في الحياة التي ليس لها معنىٰ، أو كان متصلًا بسر هذه الحياة فيكشف عنه أو يومئ إليه من قريب، أو غيَّر للنفس هذه الحياة تغييرًا يجيء طباقًا لغرضها وأشواقها؛ فإنه كما يرحل الإنسان من جو إلىٰ جو غيره، ينقله الأدب من حياته التي لا تختلف إلىٰ حياة أخرىٰ فيها شعورها ولذتها، وإن لم يكن لها مكان ولا زمان، حياة كملت فيها أشواق النفس؛ لأن فيها اللذات والآلام بغير ضرورات ولا تكاليف...

إن الاتساق والخير والحق والجمال - وهي التي تجعل للحياة الإنسانية أسرارها- أمور غير طبيعية في عالم يقوم علىٰ الاضطراب والأثرة والنزاع والشهوات، فمن ذلك يأتي الشاعر والأديب وذو الفن علاجًا من حكمة الحياة للحياة، فيبدعون لتلك الصفات الإنسانية الجميلة عالمها الذي تكون طبيعية فيه، وهو عالم أركانه الاتساق في المعاني التي يجري فيها، والجمال

في التعبير الذي يتأدىٰ به، والحق في الفكر الذي يقوم عليه، والخير في الغرض الذي يساق له، ويكون في الأدب من النقص والكمال بحسب ما يجتمع له من هذه الأربعة، ولا معيار أدق منها إن ذهبت تعتبره بالنظر والرأي، ففي عمل الأديب تخرج الحقيقة مضافًا إليها الفن، ويجيء التعبير مزيدًا فيه الجمال، وتتمثل الطبيعة الجامدة خارجة من نفس حية، ويظهر الكلام وفيه رقة حياة القلب وحرارتها وشعورها وانتظامها ودقها الموسيقي، وتلبس الشهوات الإنسانية شكلها المهذب لتكون بسبب من تقرير المثل الأعلىٰ، الذي هو السر في ثورة الخالد من الإنسان علىٰ الفاني، والذي هو الغاية الأخيرة من الأدب والفن معًا؛ وبهذا يهب لك الأدب تلك القوة الغامضة التي تتسع بك حتىٰ تشعر بالدنيا وأحداثها مارة من خلال نفسك، وتحس الأشياء كأنها انتقلت إلىٰ ذاتك؛ وذلك سر الأديب العبقري؛ فإنه لا يرىٰ الرأي بالاعتقاب[1] والاجتهاد كما يراه الناس، وإنما يحس به؛ فلا يقع له رأيه بالفكر، بل يلهمه إلهامًا؛ وليس يؤاتيه الإلهام إلا من كون

(١) الاعتقاب: إطالة النظر وكذا الفكر.

الأشياء تمر فيها بمعانيها وتعبره كما تعبر السفن النهر، فيحس أثرها فيه فيلهم ما يلهم، ويحسبه الناس نافذًا بفكره من خلال الكون، علىٰ حين أن حقائق الكون هي النافذة من خلاله.

ولو أردت أن تعرف الأديب من هو، لما وجدت أجمع ولا أدق في معناه من أن تسميه الإنسان الكوني، وغيره هو الإنسان فقط، ومن ذلك ما يبلغ من عمق تأثره بجمال الأشياء ومعانيها، ثم ما يقع من اتصال الموجودات به بآلامها وأفراحها، إذ كانت فيه مع خاصة الإنسان خاصية الكون الشامل، فالطبيعة تثبت بجمال فنه البديع أنه منها، وتدل السماء بما في صناعته من الوحي والأسرار أنه كذلك منها، وتبرهن الحياة بفلسفته وآرائه أنه هو أيضًا منها؛ وهذا وذاك وذلك هو الشمول الذي لا حد له، والاتساع الذي كل آخر فيه لشيء، أولٌ فيه لشيء.

وهو إنسان يدله الجمال علىٰ نفسه ليدل غيره عليه، وبذلك زيد علىٰ معناه معنىٰ، وأضيف إليه في إحساسه قوة إنشاء الإحساس في غيره؛ فأساس عمله دائمًا أن يزيد علىٰ كل فكرة صورة لها، ويزيد علىٰ كل صورة فكرة فيها، فهو يبدع المعاني للأشكال الجامدة

فيوجد الحياة فيها، ويبدع الأشكال للمعاني المجردة فيوجدها هي في الحياة، فكأنه خلق ليتلقىٰ الحقيقة ويعطيها للناس ويزيدهم فيها الشعور بجمالها الفني، وبالأدباء والعلماء تنمو معاني الحياة، كأنما أوجدتهم الحكمة، لتنقل بهم الدنيا من حالة إلىٰ حالة، وكأن هذا الكون العظيم يمر في أدمغتهم ليحقق نفسه.

ومشاركة العلماء للأدباء توجب أن يتميز الأديب بالأسلوب البياني؛ إذ هو كالطابع علىٰ العمل الفني، وكالشهادة من الحياة المعنوية لهذا الإنسان الموهوب الذي جاءت من طريقه، ثم لأن الأسلوب هو تخصيص لنوع من الذوق وطريقة من الإدراك، كأن الجمال يقولَ بالأسلوب: إن هذا هو عمل فلان.

وفضل ما بين العالم والأديب، أن العالم فكرة، ولكن الأديب فكرة وأسلوبها؛ فالعلماء هم أعمال متصلة متشابهة يشار إليهم جملة واحدة، علىٰ حين يقال في كل أديب عبقري: هذا هو، هذا وحده، وعلم الأديب هو النفس الإنسانية بأسرارها المتجهة إلىٰ الطبيعة، والطبيعة بأسرارها المتجهة إلىٰ النفس، ولذلك فموضع الأديب من الحياة موضع فكرة حدودها من كل نواحيها الأسرار.

وإذا رأىٰ الناس هذه الإنسانية تركيبًا تامًّا قائمًا بحقائقه وأوصافه، فالأدب العبقري لا يراها إلا أجزاء، كأنما هو يشهد خلقها وتركيبها، وكأنما أمرها في «معمله»، أو كأن الله -سبحانه- دعاه ليرىٰ فيها رأيه... وبذلك يجيء النابغ من أدب العباقرة وبعضه كالمقترحات لتجميل الدنيا وتهذيب الإنسانية، وبعضه كالموافقة وإقرار الحكمة؛ وأساسه علىٰ كل هذه الأحوال النقد، ثم النقد، ولا شيء غير النقد؛ كأن القوة الأزلية تقول لهذا الملهم: أنت كلمتي فقل كلمتك..

وترىٰ الجمال حيث أصبته شيئًا واحدًا لا يكبر ولا يصغر، ولكن الحس به يكبر في أناس ويصغر في أناس، وها هنا يتأله الأدب؛ فهو خالق الجمال في الذهن، والممكن للأسباب المعينة علىٰ إدراكه وتبيين صفاته ومعانيه، وهو الذي يقدر لهذا العالم قيمته الإنسانية بإضافة الصور الفكرية والجميلة إليه، ومحاولته إظهار النظام المجهول في متناقضات النفس البشرية، والارتفاع بهذه النفس عن الواقع المنحط المجتمع من غشاوة الفطرة وصولة الغريزة وغرارة الطبع الحيواني.

وإذا كان الأمر في الأدب علىٰ ذلك؛ فباضطرار أن تتهذب فيه الحياة وتتأدب، وأن يكون تسلطه علىٰ بواعث النفس درية لإصلاحها وإقامتها، لا لإفسادها والانحراف بها إلىٰ الزيغ والضلالة؛ وباضطرار أن يكون الأديب مكلفًا تصحيح النفس الإنسانية، ونفي التزوير عنها، وإخلاصها مما يلتبس بها علىٰ تتابع الضرورات، ثم تصحيح الفكرة الإنسانية في الوجود، ونفي الوثنية عن هذه الفكرة، والسمو بها إلىٰ فوق، ثم إلىٰ فوق، ودائمًا إلىٰ فوق!

وإنما يكلف الأديب ذلك لأنه مستبصر من خصائصه التمييز وتقدم النظر وتسقط الإلهام، ولأن الأصل في عمله الفني ألا يبحث في الشيء نفسه، ولكن في البديع منه؛ وألا ينظر إلىٰ وجوده، بل إلىٰ سره؛ ولا يُعنىٰ بتركيبه، بل بالجمال في تركيبه؛ ولأن مادة عمله أحوال الناس، وأخلاقهم، وألوان معايشهم، وأحلامهم، ومذاهب أخيلتهم وأفكارهم في معنىٰ الفن، وتفاوت إحساسهم به، وأسباب مغاويهم ومراشدهم؛ يسدد علىٰ كل ذلك رأيه، ويجيل فيه نظره، ويخلطه في نفسه، وينفذه من حواسه، كأنما له في السرائر القبض والبسط، وكأنه ولي الحكم علىٰ

الجزء الخفي في الإنسان يقوم علىٰ سياسته وتدبيره، ويهديه إلىٰ المثل الأعلىٰ، وهل يخلق العبقري إلا كالبرهان من الله لعباده علىٰ أن فيهم من يقدر علىٰ الذي هو أكمل والذي هو أبدع، حتىٰ لا ييأس العقل الإنساني ولا ينخذل، فيستمر دائبًا في طلب الكمال والإبداع اللذين لا نهاية لهما.

فالأديب يشرف علىٰ هذه الدنيا من بصيرته فإذا وقائع الحياة في حذو واحد من النزاع والتناقض، وإذا هي دائبة في محق الشخصية الإنسانية، تاركة كل حي من الناس كأنه شخص قائم من عمله وحوادثه وأسباب عيشه، فإذا تلجلج ذلك في نفس الأديب اتجهت هذه النفس العالية إلىٰ أن تحفظ للدنيا حقائق الضمير والإنسانية والإيمان والفضيلة، وقامت حارسة علىٰ ما ضيع الناس، وسخرت في ذلك تسخيرًا لا تملك معه أن تأبىٰ منه، ولا يستوي لها أن تغمض فيه؛ ونقلت الإنسانية كلها ووضعت علىٰ مجاز طريقها أين توجهت، فتأكد الأمر فيها، ووصل بها، وعلمت أنها من خالصة الله، رسالتها للعالم هي تقرير الحب للمتعادين، وبسط الرحمة للمتنازعين، وأن تجمع الكل علىٰ

الجمال وهو لا يختلف في لذته وتصل بينهم بالحقيقة وهي لا تتفرق في موعظتها، وتشعرهم الحكمة وهي لا تتنازع في مناحيها: فالأدب من هذه الناحية يشبه الدين: كلاهما يعين الإنسانية علىٰ الاستمرار في عملها، وكلاهما قريب من قريب؛ غير أن الدين يعرض للحالات النفسية ليأمر وينهىٰ، والأدب يعرض لها ليجمع ويقابل؛ والدين يوجه الإنسان إلىٰ ربه، والأدب يوجهه إلىٰ نفسه؛ وذلك وحي الله إلىٰ الملك إلىٰ نبي مختار، وهذا وحي الله إلىٰ البصيرة إلىٰ إنسان مختار.

فإن لم يكن للأديب مثل أعلىٰ يجهد في تحقيقه ويعمل في سبيله، فهو أديب حالة من الحالات، لا أديب عصر ولا أديب جيل؛ وبذلك وحده كان أهل المثل الأعلىٰ في كل عصر هم الأرقام الإنسانية التي يلقيها العصر في آخر أيامه ليحسب ربحه وخسارته...

إذا أردت الأدب الذي يقرر الأسلوب شرطًا فيه، ويأتي بقوة اللغة صورة لقوة الطباع، وبعظيمة الأداء صورة لعظمة الأخلاق، وبرقة البيان صورة لرقة النفس، وبدقته المتناهية في العمق صورة

لدقة النظر إلىٰ الحياة؛ ويريك أن الكلام أمة من الألفاظ عاملة في حياة أمة من الناس، ضابطة لها المقاييس التاريخية، محكمة لها الأوضاع الإنسانية، مشترطة فيها المثل الأعلىٰ، حاملة لها النور الإلهي علىٰ الأرض...

.... وإذا أردت الأدب الذي ينشئ الأمة إنشاء ساميًا، ويدفعها إلىٰ المعالي دفعًا، ويردها عن سفاسف الحياة، ويوجهها بدقة الإبرة المغناطيسية إلىٰ الآفاق الواسعة، ويسددها في أغراضها التاريخية العالية تسديد القنبلة خرجت من مدفعها الضخم المحرز المحكم، ويملأ سرائرها يقينًا ونفوسها حزمًا وأبصارها نظرًا وعقولها حكمة، وينفذ بها من مظاهر الكون إلىٰ أسرار الألوهية...

... إذا أردت الأدب علىٰ كل هذه الوجوه من الاعتبار - وجدت القرآن الحكيم قد وضع الأصيل الحي في ذلك كله، وأعجب ما فيه أنه جعل هذا الأصل مقدسًا، وفرض هذا التقديس عقيدة، واعتبر هذه العقيدة ثابتة لن تتغير، ومع ذلك كله لم يتنبه له الأدباء ولم يحدوا بالأدب حذوه، وحسبوه دينًا فقط، وذهبوا

بأدبهم إلىٰ العبث والمجون والنفاق، كأنه ليس منهم إلا بقايا تاريخ محتضر بالعلل القائلة، ذاهب إلىٰ الفناء الحتم.

والقرآن بأسلوبه ومعانيه وأغراضه لا يستخرج منه للأدب إلا تعريف واحد هو هذا: إن الأدب هو السمو بضمير الأمة.

ولا يستخرج منه للأديب إلا تعريف واحد هو هذا: **إن الأديب هو من كان لأمته وللغتها في مواهب قلمه لقب من ألقاب التاريخ)**[1].

---

(١) وحي القلم للرافعي(٣/ ١٩٠-١٩٨) بتصرف.

كلام أمير البيان:
شكيب أرسلان[1] رَحِمَهُ اللَّهُ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في جواب طويل له عن سؤال ورده عن كيفية دراسة الأدب، وكيف يصبح الشخص أديبًا، فقال:

(إن أحسن ما وقفت عليه من حدود الأدب في المعنىٰ الذي

---

(١) هو: شكيب بن حمود بن حسن بن يونس أرسلان، من سلالة التنوخيين ملوك الحيرة: عالم بالأدب، والسياسة، مؤرخ، من أكابر الكتّاب، ينعت بأمير البيان. من أعضاء المجمع العلمي العربيّ.
ولد في الشويفات (بلبنان) سنة: ١٢٨٦ﻫ الموافق ١٨٦٩م، وتعلم في مدرسة (دار الحكمة) ببيروت، وعين مديرا للشويفات، سنتين، وأقام مدة بمصر، وانتخب نائبًا عن حوران في مجلس (المبعوثان) العثماني، وسكن دمشق في خلال الحرب العامة الأولىٰ، ثم (برلين) بعدها.
وانتقل إلىٰ جنيف (بسويسرة) فأقام فيها نحو (٢٥) عامًا، وعاد إلىٰ بيروت، فتوفي فيها سنة: ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٦م).
من تصانيفه (الحلل السندسية في الرحلة الأندلسية) و(لماذا تأخر المسلمون) و(الارتسامات اللطاف) رحلة إلىٰ الحجاز سنة ١٣٥٤ﻫ، ـ ١٩٣٥م، و(شوقي، أو صداقة أربعين سنة) وغيرها.
انظر: الأعلام (٣/ ١٧٣-١٧٥).

تقصدونه هو «الأخذ من كل علم بطرف» ولكن العلم في الحقيقة لا يفيد فيه تعريف المعرفين ولا يغني منه توقيف الموقفين، وقد قال ابن خلدون فيلسوف الاجتماع الكبير في حد الأدب: (هذا العلم لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها، وإنّما المقصود منه عند أهل اللّسان ثمرته، وهي الإجادة في فنّي المنظوم والمنثور، علىٰ أساليب العرب ومناحيهم، فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الكلمة، من شعر عالي الطّبقة، وسجع متساو في الإجادة، ومسائل من اللّغة والنّحو مبثوثة أثناء ذلك، متفرّقة، يستقري منها النّاظر في الغالب معظم قوانين العربيّة، مع ذكر بعض من أيّام العرب يفهم به ما يقع في أشعارهم منها. وكذلك ذكر المهمّ من الأنساب الشّهيرة والأخبار العامّة).

ولو كان ابن خلدون اليوم لاشترط في استكمال أداة الأدب حفظ أيام الناس لا أيام العرب وحدهم، ومعرفة مجمل تواريخ العالم، والضرب بسهم في كل علم عصري بحيث يمكن الإنسان اليوم أن يسمىٰ أديبًا، وأن يكتب ما يفهمه الناس ويفهم ما يكتبونه.

وقد أشار ابن خلدون بقوله: (ما عساه أن تحصل به الملكة) إلىٰ كون جمع كلام العرب لا يستلزم دائمًا الاضطلاع بالأدب، بل هناك استعداد فطري يضعه الله في صدر الإنسان، وسر في سويداء فؤاده وعلقة قلبه لا يعلمه إلا الذي أودعه، وإنما يزكو علىٰ المطالعة، ويربو بارتياد الأشكال الملائمة، فمن أودع الخالق فيه هذا السر استفاد من حفظ الأشعار والأيام والأنساب وما أشبه ذلك، وربىٰ منها ملكة طائلة وبلغة كافية.

وأما من لم يقيض لهذا الأمر، ولا نفحه الله بشيء من هذه النعمة فإنه يفق من دون عتبة الأدب، ويبقىٰ أجنبيًّا عن أهله ولو نزف مناقع الأدب كلها وتتبع مواقع الحكمة بأجمعها.

ومهما أبعد الإنسان النجعة في مسارح الطلب وتنوق في ضرو الاختيار، وكان لم يوهب طبعًا صافيًا، ولا قريحة سمحة، ولا بصرًا نافذًا، ولا زندًا في التحصيل واريًا، فإنه يمكث في هذه الغاية قاعدًا، ويبقىٰ طائره أحص الجناح، ويقع علىٰ زمكه كلما حاول الطيران.

ومن هذا الطريق وُجد من طالع لباب الآداب، واشتمل علىٰ خزائن العلوم، وأحاط بشذاذ الأخبار، واقتاد أوابد المعارف، لا

بل شوهد من قضىٰ حياته في تدريس متون البلاغة والدلالة علىٰ طرق البيان، ولم يهد الله إلىٰ سلوك سبلها في كتابته.

لذلك قال الجاحظ وهو في الأدب المنارة العالية التي يهتدىٰ بها في الليل، والصخرة العاتية التي ينحط عنها السيل: (إن الطبيعة إذا كان فيها قبول، فالكتب تشحذ وترهف).

ومعناه: أنها إذا كان رشحها رشح الحجر فمطالعة الكتب لا تنبط منها معينًا، وأنه إذا كان ضرع القريحة بكيئًا فلا تستدر منه حسن الرعي ولا نضارة المنتج لبنًا، وبعد أن يسلم السائل بأن الاستعداد الغريزي هو الشرط الأول في الأدب إن أراد أن ينزل علىٰ حكمنا في الارتياد قلنا له: ذكر ابن خلدون أصول كتب الأدب هي أربعة دواوين: (أدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرّد وكتاب البيان والتّبيين للجاحظ وكتاب النّوادر لأبي عليّ القالي).

ودل غيره علىٰ غير هذه الكتب أيضًا، وأطال صاح «المثل السائر» في الإيضاح، وإذا كنت لا أتوخىٰ الآن التقيد بالنقل، ولا أذهب إلىٰ القص علىٰ آثار الحروف مع ما ينزع إليه هوىٰ هذا العصر من حب الجديد وابتغاء الطريف، ومع ما أنا فيه من ضيق

الوقت عن المراجعة، أقص لإخواني ناشدي هذه الضالة سيري الخاص لالتقاط هذا الفن، وإن كنت لم أفز منه بطائل يذكر:

فإنني حفظت لعهد الحداثة شيئًا من كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع، كما أن جميع ما كتب ابن المقفع يصح أن يكون مثالًا يُحتذىٰ سواء في كليلة ودمنة أو في أدبيه الصغير والكبير، ثم قرأت رسائل بديع الزمان الهمذاني وأبي بكر الخوارزمي حتىٰ صرت أستظهر منها الكثير بدون تكلف، وفيها من رشاقة الأسلوب والخفة علىٰ الروح مالا أجده إلا في النادر مما كتبه العرب.

ونظرت في كثير من كتب الجاحظ، وهذه وحدها عمدة كافية في هذا العلم، وبلغة جازية في إشباع من فهمها حق الفهم، وطالعت الأغاني الذي من فاته الاطلاع عليه فقد فاته أكثر جمال اللسان، وكان معذورًا في ضيق الذرع وقصر الباع، وسبق لي قبل رؤية الأغاني مطالعة العقد الفريد لابن عبد ربه وهو أنبه من أن ينبه عليه.

وخزانة الأدب ولب اللباب لسان العرب للبغدادي وهو أوسط ما ألف في هذا الفن، ومعاهد التنصيص في شواهد التلخيص، ونفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب الذي قيل فيه: من لم يقرأه فليس بأديب.

ثم مقدمة ابن خلدون، وقلم ابن خلدون لو نشر لعجز عن وصف بلاغة نفسه والإحاطة بمدىٰ علو طبقته وإشراب القلوب ما هناك من دقة معنىٰ في جلالة بناء ورصانة تركيب.

ولا أستوفي ذكر جميع ما طالعت وإنما أقول إنْ في قراءة ما عددته من الأمهات وتصفحته من هذه الأمثلة مقنعًا لمن شاء أن يكرع من الأدب بإناء واسع، ويسرح من البيان في فناء شاسع، وإن كنت قصرت في الشأو الذي تطاللت إليه فالحق في ذلك علىٰ ضعف النحيزة ووناء الفكرة، وتعزز سحاب الطبع بقطر الفصاحة.

وإذا كان لابد للأديب من حفظ جيد الشعر الذي هو ديوان الأدب الأعلىٰ، والذي ينفتح علىٰ صاحبه الكلام ويتسع المذهب مهما ضاقت به مذاهب القول فيجدر به أن يحفظ من قصائد الحماسة التي جمعها أبو تمام، ومن مفضليات الضبي ومن المعلقات السبع، فإن لم ينتدح له الوقت لذلك فلابد له من حفظ جزء صالح من مما في الأغاني، ولا يذهب عنه استظهار ما يمكنه من الأمثال، فإن الأدب: شعر جيد، ومثل سائر، وخبر مأثور، ونسب محفوظ، وسهم مضروب في متعدد من العلوم، ومن قرأ ترسل الصابي والصاحب والقاضي الفاضل علم ما كان يختزنه

هؤلاء السباق في الحلبة من كنوز الحفظ ودرر الاختيار، وكاد يلحظ من وراء كل سجعة إشارة إلىٰ واقعة، ويظفر في منتهىٰ كل فاصلة بشذرة من مثل، ورأىٰ النظم منثورًا والنثر منظومًا وشاهد آثار مأثور الأقوال ومشرق الشعر ومغربه عند كل جملة.

ولا يُعد الأديب أديبًا متحققًا بعد هذا كله حت يحفظ كثيرًا من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام حفظًا تنهض به الملكة أن يحسن منه الاقتباس ويجيد أمامه توطئة الاستشهاد...

وشرط علىٰ من شاء أن يكون أديبًا وعانىٰ هذا الشوق المبرح، أن يقيم العربية؛ فإنه لا ينجو به في مأزق الكتابة ومعترك الفصاحة مثل مطية قوية من النحو، وأهم من ذلك علم اللغة؛ فإنه لا يريش في خوافي اليراع وينهض به في جو البيان، ولا يعين علىٰ التغلغل في أنحاء النفس وإبراز دقائق الخواطر رافلة في المطارف اللائقة بها من الألفاظ مثل النظر في اللغة والتأمل في وجوه اشتقاق الكلمات بعضها من بعض، وسيل هذا من هذا ولمح معنىٰ من آخر، ومن شاء أن يقرأ تاريخ النفس البشرية فعليه بعلم اللغة.

أما الكتب التي أشار إليها ابن خلدون فهي من قبيل القواعد لهذا الفن، وإن كانت القواعد لا تقوم به، فمن استفص من

مطالعة ما أتينا علىٰ ذكره شيئًا فقد تفيده تلك القواعد، وإلا فليس هذا كغيره من الفنون يتعلمه المرء بالضوابط ويأخذه بالمقدمات والنتائج.

علىٰ أن كتب السلف وإن كان كل من نطق بالضاد عليها عيالًا، فقد أصبحت لا تغني من أراد أن يدعىٰ أديبًا عصريًا معدودًا، بل لكل دولة رجال ولكل زمان أحكام، فمن شاء أن ينطبع علىٰ فصاحة الأولين في كياسة المحدثين، وأن يعود مع رقة الحاضرة إلىٰ نصاب صدق في جزالة البادية، وكان الله قد وهبه سدادًا في الحكم ونفاذًا في الطبع وإجابة في القريحة يرجىٰ له معها الخب في هذا الميدان، فإنني لا أجد له أحسن من «تاريخ الآداب العربية» الذي أخرجه أخيرًا للناس المتأدبين الكاتب البارع المحقق: مصطفىٰ أفندي صادق الرافعي...)[١].

---

(١) من رسائل الرافعي لأبي رية (ص١٢-١٧) وقد نقلها أبو رية من جريدة المؤيد الصادرة في يوم الاثنين من غرة ربيع الأول سنة ١٣٣٠هـ، الموافق ١٩ فبراير ١٩١٢م.

كلام الاديب
محمد كرد علي[1] رَحِمَهُ اللهُ

قال رَحِمَهُ اللهُ في إجابة له على سؤال عن طريقته وأسلوبه في الكتابة:

(كان دأب أحد الوزراء المتأدبين كلما جمعتني به المصادفة أن يسألني عن الطريقة التي سلكتها حتى كان لي هذا الأسلوب في الإنشاء، ولا يتمالك في التصريح بالإعجاب به على ما عرف عنه من الهزوء بالعلماء والأدباء، والزراية بما يؤلفون وينشرون، فكنت

---

(١) هو: محمد بن عبد الرزاق بن محمَّد، كُرْد علي: رئيس المجمع العلمي العربيّ بدمشق، ومؤسسه، وصاحب مجلة (المقتبس) والمؤلفات الكثيرة. وأحد كبار الكتّاب. أصله من أكراد السليمانية (من أعمال الموصل) ومولده ووفاته في دمشق. تعلم في المدرسة (الرشدية) الاستعدادية.

وولي وزارة المعارف مرتين في عهد الاحتلال الفرنسي، كان ينحو في كثير مما يكتبه منحى ابن خلدون في مقدمته. من مؤلفاته (مجلة المقتبس) ثمانية مجلدات وجزآن، و(خطط الشام) ستة مجلدات، استخرجه من نحو ٤٠٠ كتاب، و(أمراء البيان) جزان، و(الإسلام والحضارة العربية) مجلدان، وغيرها، توفي سنة: ١٣٧٢ هـ ١٩٥٣م).

انظر: الأعلام للزركلي (٦/ ٢٠٢-٢٠٣).

أقول له ربما كان لدوامي علىٰ المطالعة ومعالجة الموضوعات المختلفة بالكتابة مدخل في تكوين الأسلوب، يضاف إليها ثلاثة ثقافات عربية وفرنسية وتركية، والتمرين الطويل من أهم العوامل في هذا الباب، فكان سائلي لا يرضيه جوابي، ويعتقد أن هناك سرًا لا يوافقني أن أبوح به، فكنت أضحك وأقول: لو كانت لي طريقة خاصة ما اهتدىٰ إليها أحد، لبادرت إلىٰ نشرها علىٰ الناس حتىٰ يعم استعمالها، ويأخذ بها من يود أن يأخذ، أما هو فكان يمتعض امتعاض من يحاول إخراج سر فيمتنع عليه، ولطالما ورَّىٰ بأنني ضنين لا أحب أن أشرك أحدًا أسلوبي.

وكان هذا الوزير الحريص علىٰ تقوية ملكته، كان يعتقد أن الأدب كالسياسة، منها ما يكتم ومنها لا بأس به أن يُعلم.

كنت في محاولة الوزير أنتزع ما يزعم أني أخفيه عنه تارة وأقتضب أخرىٰ، والجواب واحد لا يتغير، وهذا ما كان يسوؤه ويزيد من سوء ظنه.

وذكرت له مرة كيف تعلمت، وما كانت المجُمَلات مما ترضيه، بل كان هواه في التفصيل وأخذ الفائدة في دقيقة، فقلت له

أني أتلو القران بتدبر، قرأته علىٰ أساليب مختلفة؛ لتفهمه وتمثل بلاغته، وأني طالعت طرفًا صالحًا من كتب الحديث كالبخاري ومسلم، وغيرها من كتب السنة، وحفظت المعلقات السبع، وطرفًا صالحًا من دواوين العرب، وحفظت نحو نصف ديوان المتنبي، وعدة قصائد لعمر بن أبي ربيعة، والبحتري وأبي تمام والرضي وابن الرومي والطغرائي والأرجاني والمعري وعلي بن عبد العزيز وغيرهم من الشعراء المحُدَثين والمخضرمين، وتدارست الكامل للمبرد، والعقد الفريد لابن عبد ربه، والتاريخ اليميني للعتبي، والمثل السائر لابن الأثير، واستظهرت أشياء كادت تفسد عليَّ ملكتي، مثل بعض مقامات الحريري، ورسائل الهمذاني ومقاماته، ورسائل الخوارزمي، وبديعية النابلسي.

وما أخرجني من تكلفة النسج علىٰ منوال المتأخرين كالقاضي والصابي وابن الاثير إلا الولوع بعد حين برسائل عبد الحميد وابن المقفع والجاحظ والتوحيدي.

أما ما وصل إليّ مما كتبوه وكتبه أمثالهم من السهل الممتنع فقد قرأته مرات، ولا أزال أقرؤه.

ولا يتيسر هنا سرد أسماء ما طالعت من الكتب والرسائل المطبوعة والمخطوطة، وما نظرت فيه من أسفار العلماء الذين كانت لهم يد باسطة في الكتابة الرشيقة، أمثال ابن حزم والغزالي وابن قتيبة والطبري والمسعودي والدينوري والباقلاني والماوردي والزمخشري والراغب الأصفهاني والميداني وأبي الفرج الأصفهاني وابن تيمية وابن القيم الجوزية وابن خلدون.

هذا إجمال ما يقال في المادة التي تخرجت بها لتقوية ملكة البيان.

ولطالما سمعت بعض أساتذتي يقول: إن أسلوب المرء يخترعه صاحبه، ولا يقتبسه من غيره ولا ينقله من كتاب، فهو ابن مزاجه وتربيته وبيئته وذوقه وفنه.

وهذه المادة التي درستها يصل إليها كل مجتهد، ويتمثلها الذكي الأديب، بَيدَ أنها لا تعدو الألفاظ غالبًا، والعبرة بالتراكيب، والتراكيب ابنة من يصوغها ويزيدها جمالًا: علم الكاتب ووفرة اطلاعه.

ولا تجود الكتابة بما تحمل من الألفاظ بما تنطوي عليه من المعاني والتلطف في أدائها واطراح التكلف، وأهم ما تتوقف عليه

الإجادة في الإنشاء عدم الخوض في موضوع لم يدرسه الكاتب، ولم يأخذ من نفسه.

والمعاني إذا اجتمعت في الذهن لا تعدم قالبًا مقبولًا تظهر به، وهذا من السهل علىٰ من كان له نصيب وافر من اللغة.

ويجاب علىٰ من يحاول سرقة الأفكار بأهون سبب أن من المستحيل علىٰ من درس العربية سنين محدودة في المدارس الرسمية، ولم يمض له الوقت الكافي حتىٰ يتخرج في الإنشاء بأستاذ من كبار أساتذة هذا الفن، أن يلحق من صرف عمرًا طويلًا وهو يطالع ويكتب ويتمرن)[1].

---

(١) المذكرات لمحمد كرد علي (٤/ ١١٩٢-١١٩٤).

كلام الأديب
أحمد أمين[1] رحمه الله

قال رحمه الله في مقال له بعنوان: (كيف يرقىٰ الأدب):

(...للأدب خطة تنتهج كمنهج العلم، وأن من نعده للأدب يجب أن نثقفه ثقافة خاصة كالذي نعده للعلم، ولكن من الحق أيضًا إننا لا نخلق الأديب ببرنامجنا، بل لابد أن تكون قد هيأته الطبيعة ومنحته استعدادات خاصة وكفايات ممتازة، وتهيؤا

---

(١) هو: أحمد أمين ابن الشيخ إبراهيم الطباخ: عالم بالأدب، غزير الاطلاع علىٰ التاريخ، من كبار الكتاب، ولد بالقاهرة سنة: ١٨٨٦م.
قرأ مدة قصيرة في الأزهر، وتخرج بمدرسة القضاء الشرعي، ودرّس بها إلىٰ سنة ١٩٢١م، وتولىٰ القضاء ببعض المحاكم الشرعية ثم عيّن مدرسا بكلية الآداب بالجامعة المصرية، وانتخب عميدا لها (سنة ١٩٣٩م)، ومن أعماله إشرافه علىٰ (لجنة التأليف والترجمة والنشر) مدة ثلاثين سنة.
ومن تآليفه: (فجر الإسلام) و(ضحىٰ الإسلام) و(ظهر الإسلام) و(يوم الإسلام) وغيرها،
توفي سنة: ١٣٧٣ هـ، ١٩٥٤ م).
انظر: الأعلام للزركلي (١/ ١٠١) وكتاب حياتي لأحمد أمين (ص ٢١).

لقبول الإلهام، ولكنه في كل ذلك كالعالِم، فبرنامج العلم لا يخلق نابغة في العلم إنما يعده، والعالم لابد أن يكون مهيأ للإلهام كالأديب...

الذي أميل اليه أن الفن نتيجة الذوق لا محالة، وأن الذوق يمكن تربيته وترقيته، فالطفل إذا لُفِتَ نظره إلىٰ الأزهار وجمالها تكوّن فيه الميل إلىٰ حبها والاستمتاع بها، فإذا كان يعدُ أديبًا اتصلت حياته الأدبية بها، وظهر في نتاجه الفني هذا الحب وهذا التقدير.

والذوق العام للأمة في قوته وانحطاطه، ليس يظهر فجأة ولا نتيجة المصادفة البحتة، إنما هو نتيجة لكل ما يحيط بالأمة من ظروف وأحداث، هو نتيجة النظم السياسية، والحياة الاقتصادية والاجتماعية، والثقافة العقلية وغير ذلك، وإن شئت فقل إن ذوق الأمة هو تعبيرها عما تُقوِّم، فالأمة إذا قَوّمت المناظر الطبيعية تذوقتها، وإذا قومت جمال الأزهار تذوقته، وإذا لم تقوم نظام المجتمعات لم تتذوقه...، والأديب ليس إلا الموقع للأصوات التي تستلذها الأمة.

... علىٰ كل حال لا وسيلة لترقية الفن ومنه الأدب إلا بترقية الذوق، وربط الفن به، ولذلك وسائل:

- من أهمها التأذين في الناس بصوت عال يهزهم هزًا عنيفًا حتىٰ يشعروا بأن أذواقهم مريضة، لا يشعرون بالجمال كما ينبغي ولا يهيمون بالحسن كما يجب، ولست أعني جمال الوجوه وحدها، ولكن جمال الأزهار، وجمال الطبيعة، وجمال الحركة، وجال النظام، وجمال النظافة، وجمال المعاني، ويجب أن لا يقتصر دعاة الفن علىٰ الدعوة لجمال الكرنك وأنس الوجود والمساجد الأثرية بل يجمعون إلىٰ الدعوة لجمال الماضي وجمال الحاضر. وهذا أكثر وضوحًا في الأدب فدعوة الأدباء دائمًا وقول الأدباء دائمًا إنما هو إلىٰ الماضي وفي الماضي، وهذا حسن لدرجة ما ولكن يجب أن يقرن به الدعوة القوية أيضًا إلىٰ النظر إلىٰ أنفسنا والقول في أنفسنا.

- يجب أن نغير تسعيرة الأشياء، ونضع تسعيرة جديدة لما يدور حولنا، ونضع أمام ناشئتنا قيمًا جديدة لما يقع عليه نظرهم، فإذا كانت بيوتنا تعنىٰ بكمية الأكل وتعطيها أكبر قيمة، وجب أن

نرفع قيمة الكيفية فنضع قيمة كبرىٰ للأزهار علىٰ المائدة ولجمال الترتيب والنظام ولجمال الحديث.

- يجب أن نوجه إرادتنا في ترقية الذوق كما نوجه إرادتنا لترقية العلم وترقية النظام السياسي، ونضع للذوق برامج كالتي نضع لبرامج التعليم.

إنا إن فعلنا ذلك تمخض المجتمع عن فنان ماهر، وأديب قادر)[(١)].

وفي مقال له تحدث رَحِمَهُ اللَّهُ عن كيفية كتابة المقالات وأنواعها وما يميز الكاتب المجيد عن غيره، وأنقله بطوله لما فيه من فوائد لمن يبتغي أن يكون كاتبًا متميزًا، قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

(هنالك أنواع من المقالات يصح أن نسميها مقالات علمية بالمعنىٰ الواسع، فتشمل المقالات الاجتماعية كما تشمل بحث مسألة أدبية بحثًا علميًّا؛ وهذا النوع سهل علىٰ الكاتب متىٰ تيسرت له أدوات البحث من كتب ومراجع ونحوها، وتوفر له حسن الاستعداد من معرفة بمناهج البحث وأساليبه؛ فكل وقت

---

(١) فيض الخاطر لأحمد أمين (١/ ٥٦-٥٩).

صالح لكتابة مثل هذه المقالات وإعدادها ما لم يكن الكاتب في حالة استثنائية من مرض ونحوه.

وهناك نوع من المقالات هي المقالات الأدبية بالمعنىٰ الخاص، وأعني بها الأدبية أدبًا إنشائيًّا صرفًا لا أدب بحثٍ ودرس؛ وهذه أصعب من الأولىٰ من حيث إنها تتطلب -فوق حسن الاستعداد- «المزاج الملائم» فليس الكاتب في كل وقت صالحًا لها، بل لا بد أن يكون مزاجه ملائمًا للموضوع الذي يريد أن يكتب فيه؛ فإن كان الموضوع فكهًا مرحًا فلا بد أن يكون مزاج الكاتب كذلك فكهًا مرحًا، وإن كان الموضوع عابسًا حزينًا فلا بد أن يكون مزاج الكاتب من هذا القبيل؛ ولذلك قد يمر علىٰ الكاتب الأديب أوقات وخلع ضرسه أهون عليه من كتابة مقال، وإذا هو حاول ذلك فكأنما يمنح من بئر أو ينحت في صخر؛ ذلك لأن هذه المقالة الأدبية لا بد أن تنبع من عاطفة فياضة، وشعور قوي؛ فإذا لم يتوفر هذا عند الكاتب خرجت المقالة فاترة باردة لا يشعر منها القارئ بروح، ولا يحس منها حرارة وقوة. ولا يكفي عند الكاتب وجود عاطفة قوية، بل لا بد أن تكون هذه

العاطفة من جنس الموضوع الذي يريد معالجته. فويل له إن أراد رثاء وقلبه ضاحك مرح، أو أراد فكاهة وقلبه بائس حزين. ومن أجل هذا يحاول الكتَّاب أن يؤقلموا نفوسهم للموضوع أولًا، فيستلهموا كتابًا أو قصيدة أو منظرًا طبيعيًا أو نحو ذلك من الوسائل الصناعية - إن عدموا الوسائل الطبيعية - حتىٰ تهيج مشاعرهم من جنس الموضوع، ثم يأخذوا في الكتابة، فتتدفق معانيهم، وتغزر أفكارهم ومشاعرهم.

وشأنهم في ذلك شأن كل فنان من موسيقي ومصور ومثال، فهؤلاء لا يحسنون الإخراج إلا في ساعات خاصة هي ساعات هياج مشاعرهم من جنس موضوعهم.

أما موضوع (المقالات الأدبية) فكل شيء في الحياة صالح لأن يكون موضوعًا، من الذرة الصغيرة إلىٰ الشمس الكبيرة، ومن الرذيلة إلىٰ الفضيلة، ومن كوخ الفلاح إلىٰ قصر الملك، ومن الماضي إلىٰ الحاضر إلىٰ المستقبل، ومن أقبح قبيح إلىٰ أجمل جميل، ومن الحياة إلىٰ الموت، ومن الزهرة الناضرة إلىٰ الزهرة الذابلة، ومن كل شيء إلىٰ كل شيء.

والكاتب الفني من استطاع أن يجد من كل شيء موضوعًا يجيد فيه ويستخرج إعجاب القارئ، ومن استطاع أن يجد من كل شيء نواة يؤلف حولها ما يصلح لها حتىٰ يخرج موضوعه منسقًا تنسيقًا يبهر السامع والقارئ؛ وهو في تأليفه قد يضم الشيء إلىٰ إلفه، وقد يضمه إلىٰ نقيضه، وقد يصل به الكلام في الذرَّة إلىٰ الكلام في الشمس، وقد يصل به الكلام في النملة إلىٰ الكلام في الله، ولكن القارئ لا يشعر بمفارقات ولا يشعر بهوة بين أجزاء الكلام، ويسير مع الكاتب كأنه في حلم لذيذ أو قصة محبوكة.

والفرق بين كاتب وكاتب في شيئين: التلقي والإذاعة؛ فالفرق في التلقي هو أن الكاتب قد يكون دقيق الحس، يسمع حفيف الأشجار ودبيب النمال، ويرىٰ دقيق الأشياء في الظلماء، ويرىٰ قلوب الناس في أعينهم، ودخائلهم في صفحات وجوههم؛ وقد يرىٰ بأذنه ويسمع بعينه، وقد يرىٰ ما لا يرىٰ الناس، ويسمع ما لا يسمع الناس، وقد يدرك الجمال بتفاصيله، ويدرك القبح بتفاصيله، حتىٰ كأنه قد منح من الحواس ما لا يمنحه الناس، وكأن حواسه ليست خمسًا وإنما هي خمسون أو خمسمائة أو ما شئت؛ علىٰ حين أن أخاه الكاتب الآخر لم يمنح هذا القدر من

الحس، ولم يبلغ هذا المبلغ من الذوق، قد فاق المألوف من الناس، ولكن إلىٰ حد، وتسامىٰ ولكن بمقدار.

ويفضل الكاتبُ الكاتبَ أيضًا في التلقي من ناحية أن كاتبًا قد تعددت مناحي إدراكه تعددًا متشعبًا؛ فالطبيعة توحي إليه بأسرارها، والمجتمع يملي عليه بواطنه، والحياة كلها لا تضن عليه بخفاياها، والمُلَح والفكاهات تدخر له أحسن ما لديها، والجد لا يضن عليه بخير ما عنده؛ فهو مستودع الأسرار، وملتقىٰ البحار والأنهار، ومن يأمنه كلٌّ علىٰ سره، ويفضي إليه بما يضن به علىٰ غيره؛ علىٰ حين أن أخاه الكاتب قد يصل إلىٰ بعض الأسرار، ويدرك بعض الاتجاهات ويعجز عن إدراك البعض؛ قد يجيد فهم الطبيعة ولا يفهم للمجتمع سرًا، وقد يجيد فهم الجد ولا يفهم الدعابة، ذكي في أمر وغبي في آخر، منير في جانب مظلم في جانب.

فعلىٰ هذا النحو أيضًا: منهم من يجيدها إلىٰ أقصىٰ «الإذاعة» وأما اختلاف الكُتّاب في حد، فصوته صاف جميل يأخذ بالألباب، ويستخرج منك العجب والإعجاب،....

ومن اختلاف الكُتَّاب في التلقي والإذاعة يختلفون في

«القيمة»، ومع هذا فقد يختلفون في التلقي والإذاعة معًا ويتحدون في «القيمة»...

فهذا كاتب يجيد في ناحية من النواحي، وذاك يجيد في ناحية أخرىٰ، - وهما في درجة الإجادة سواء - هذا كاتب يعنىٰ كل العناية بشكل المقالة ومظهرها، فتخرج من يده مرتدية بالملاحة، موسومة بالظرف، لها بهاء مُونِق، ورونق معجب، قد قيست كل جملة منها بالمسطرة حتىٰ تكون وفق قرينتها، إن كان في إحدىٰ أذنيها قرط كان في الأذن الأخرىٰ قرط مثله، يوافقه في الحجم والشكل والطول، وإن كحلت إحدىٰ عينيها، فلا بد أن تكتحل الأخرىٰ علىٰ نمط الأولىٰ في دقة وضبط، حتىٰ تبرز كأنها دمية عاج، ثم هي بعدُ خفيفة المعنىٰ، فاترة الروح، تشغل الأفكار بالنظر إلىٰ شكلها عن النظر إلىٰ روحها.

وهذا كاتب آخر لا يُعنىٰ في مقالته بزي ولا شكل، فتخرج نظيفة في غير جمال، لا يقف عليها الطرف، ولا تأخذ بالأبصار، ولكنها عميقة المعنىٰ، رائعة الفكر، جميلة الروح، هي كالغانية تستغني بحسن ذاتها عن زينتها، حُسْنها كما قال أبو الطيب (حسن غير مجلوب) وجمالها غير مصنوع.

فلكلّ جماله ولكلّ قيمته الأدبية، هذا يرضي الخاصة، وذاك يرضي العامة، ولا بد في الحياة الأدبية من النغمتين معًا.

وليس يشترط في إجادة الكاتب أن يطرق موضوعًا جديدًا لم يسبق إليه، بل كل موضوع صالح لأن يَكْتُب فيه ولو تداولته أقلام الكُتّاب من قبل، فمن مبدأ خلق الإنسان وهو يحب، ومن مبدأ خلق الأدب والحب موضوع للأدب، ومع هذا لم تنفد مادته، ولا يزال الشعر والنثر... والتصوير تستقىٰ من منابعه، وتكرر أناشيده؛ ولكن لا يُعَد الكاتب في الموضوع المعاد مجيدًا إلا إذا أتىٰ بجديد غاية الأمر أنه لا يشترط جدة الفكر، بل يكفي في ذلك جدة العرض. وأكثر الأدب من هذا القبيل أفكار مألوفة وآراء معروفة؛ ولكن الأديب يستطيع أن يصوغها صياغة جديدة حتىٰ يخيل للقارئ من جودة الصياغة أنها جديدة الفكرة؛ بل إن الكاتب إذا كثرت آراؤه الجديدة خرج عن أن يعد أديبًا شعبيًّا أو أديب أمة، وصار أديبًا للخاصة لا يقوّم إلا في أوساط قليلة...

وكل ما يطلب من الفنان أن يجيد العرض، وأن يكون عرضه ملائمًا لشخصيته.

انظر في ذلك إلىٰ الروايات الجيدة تجد معانيها في أغلب الأحيان معروفة ينطق بها العامة والخاصة، وتجري علىٰ ألسنة الجهلاء والعلماء، ومع ذلك استطاع الأديب الفنان أن يجعل منها رواية رائعة أو قصة بديعة أو مقالة شائقة، وليس له في ذلك إلا الصياغة وحسن العرض، قد أخذ الفكرة التي يراها كل الناس، ولكنه عرف كيف يلعب بها ويجيد اللعب، ويقلبها علىٰ وجوهها المختلفة ويلبسها لباسًا جديدًا، فقد أسبغ علىٰ الفكرة من عواطفه وشعوره ما جعلها جذابة أخاذة، وهذا هو الجديد في الموضوع، فإن لكل أديب نفسَه وعواطفه وأسلوبه وشخصيته؛ فإذا مزج الفكرة بذلك كله كان في الناتج جدّة، وفي الموضوع طرافة، كحروف الهجاء، كل الناس ينطقون بها، ولكن اختلفت مناطقهم وأصواتهم وحناجرهم، فكانت كأن كل إنسان ينطق بها نطقًا جديدًا، وكأن الحروف لم تخلق بشكلها الخاص إلا له. والقطعة من الذهب إنما يتفاوت الصائغون بالمهارة في صياغتها والذهب هو الذهب في أيديهم جميعًا.

وأخيرًا خير الكُتّاب من استطاع أن يفهم نفسه ويعرف استعداداته، في أي النواحي يجيد وفي أيها يضعف، ومتىٰ يرقىٰ ومتىٰ يُسِفّ، قد جرب نفسه أوّلًا في ضروب الأدب المختلفة من قصة وشعر وكتابة اجتماعية وكتابة أدبية ونقد وإنشاء، وقلّب نفسه علىٰ وجوهها المختلفة، ولاحظ ذلك في دقة وعمق، وعالج مواضع الضعف منها، ثم استقر بعد السياحة الطويلة الشاقة إلىٰ شيء اطمأن إليه، وهو أن ملكاته واستعداداته يوافقها شيء ولا يوافقها آخر، وتنبع في مواضع وتجمد في أخرىٰ)[١].

وأختم ما يتعلق بالأديب أحمد أمين بكلام له عن تجربته في الكتابة والمنهج الذي كان ينتهجه في مقالاته، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(فكر الأستاذ أحمد حسن الزيات في أن يشترك مع بعض أصدقائه من لجنة التأليف في إخراج مجلة الرسالة، وكنت أحدهم، فكنت أكتب في كل أسبوع - تقريبا - مقالة، وكان هذا عملا أدبيا يلذ نفسي بجانب بحثي العلمي، فأنا كل أسبوع أفكر في موضوع مقال وأحرره، واضطرني ذلك إلىٰ قراءه كثير من الكتب الإنجليزية أستعرض فيها ما يكتب وكيف يكتب، وأعتمد

---

(١) فيض الخاطر (١/ ١٧٥-١٧٨).

أكثر ما أعتمد علىٰ وحي قلبي أو إعمال عقلي أو ترجمة مشاعري، وكانت مقالاتي تتوزعها هذه العوامل الثلاثة.

وأكثر ما اتجهت في هذه المقالات إلىٰ نوع من الأدب تغلب عليه الصبغة الاجتماعية والنزعة الإصلاحية، فهذا أقرب أنواع الأدب إلىٰ نفسي وأصدقها في التعبير عني، **وخير الأدب ما كان صادقًا يعبر عما في النفس من غير تقليد، ويترجم عما جربه الكاتب في الحياة من غير تلفيق**، ولقد اطمأننت إلىٰ هذا النوع من الكتابة، إذ كان يفتح عيني للملاحظة والتجربة، ويسري عن نفسي بالإفراج عما اختزنته من حرارة، فكنت أشعر بعد كتابة المقالة كما يشعر المحزون دمعت عينه أو المسرور ضحكت سنه، وكنت أحس كأن نحلة تطن في أذني لا تنقطع حتىٰ أكتب ما يجيش في صدري، فإذا استولىٰ موضوع المقالة علىٰ ذهني فهو تفكيري إذا أكلت أو شربت، وحلمي إذا نمت؛ وعمل لا وعيي الباطن إذا شغلت، ولهذا انقلبت هذه الظاهرة إلىٰ عادة، ومن عادة إلىٰ (كيف) متسلطن كما يشعر مدمن الدخان أو مدمن الخمر.

ولي تجربة في هذا الباب؛ وهي أني إذا عمدت إلىٰ إعداد بحث علمي كفصل من فصول فجر الإسلام أو ضحىٰ الإسلام فأنا أرىٰ كل وقت صالح لهذا العمل ما لم أكن مريضًا، أما في المقولات الأدبية فلست صالحًا في كل وقت، بل لابد أن تهيج عواطفي بعض الهياج، وتهتز نفسي بعض الاهتزاز، وأنسجم مع الموضوع كل الانسجام، فإذا لم تتيسر لي كل هذه الظروف كنت كمن يمتح من بئر أو ينحت من صخر.

وأحيانا أرىٰ القلم يجري في الموضوع حتىٰ لا أستطيع أن أوقفه، وأحيانا يسير في بطء وعلىٰ مهل حتىٰ لا أستطيع أن أستعجله، وأحيانا يتعثر فلا أجد بدا من الإعراض عن الكتابة. ومن الصعب تعليل ذلك، فقد يكون سببه صلاحية المزاج وسوؤه، وقد يكون قوة الدواعي وضعفها، وقد يكون الاستعداد للتجلي وعدمه.

واعتدت منذ أول عهدي بالقلم أن أقصد إلىٰ تجويد المعنىٰ أكثر مما أقصد إلىٰ تجويد اللفظ، وإلىٰ توليد المعاني أكثر من تزويق الألفاظ، حتىٰ كثيرا ما تختل (ضمائري) فأعيد الضمير

علىٰ مؤنث مذكرا وعلىٰ مذكر مؤنثا، لأني غارق في المعنىٰ غير ملتفت إلىٰ الألفاظ، ولا أتدارك ذلك إلا عند التصحيح، وقد يفوتني ذلك أيضا. ولتقديري للمعنىٰ أميل إلىٰ تبسيطه، حتىٰ لأسرف أحيانا في إيضاحه، لشغفي بوصوله إلىٰ القارئ بينًا ولو ضحيت في ذلك بشيء من البلاغة.

وقد تعودت من الأدب الإنجليزي الدخول علىٰ الموضوع من غير مقدمة، وإيضاح المعنىٰ من غير تكلف، والتقريب - ما أمكن - بين ما يكتب الكاتب وما يتكلمه المتكلم، وعدم التقدير للمقال الأجوف الذي يرن كالطبل ثم لا شيء وراءه. ومن حبي للإيضاح أفضل اللفظ ولو عاميا علىٰ اللفظ ولو فصيحًا إذا وجدت العامي أوضح في الدلالة وأدق في التعبير، وأفضل الأسلوب السهل ولو لم يكن جزلًا إذا وجدت الأسلوب الرصين يغمض المعنىٰ أو يثير الاحتمالات، ويدعو إلىٰ التأويلات.

ومن أجل هذا تشكك فيَّ بعض الأدباء: هل يعدونني أديبا أو عالما! ولم أقم لهذا الشك وزنا، فخير لي أن أصدق مع نفسي

ومع غرضي ومع ميلي من أن أزوق أسلوبي وأكذب علىٰ نفسي ليجمع الناس علىٰ أدبي.

وقد اعتدت - عند كتابة مقال - أن أرسم الموضوع إجمالا لا تفصيلا، وإذا رسمته أبحث لنفسي أن أغيره وأبدله إذا جد جديد. وكثير من المعاني التفصيلية تأتي وأنا أكتب لا وأنا أفكر قبل أن أكتب، ولهذا لما أصبت في عيني ونهاني الأطباء عن الكتابة زمان صعب عليّ الإملاء، ولم أجد من غزارة المعاني ما كنت أجد عند مزاولة الكتابة بنفسي)[١].

وكلام الأديب أحمد أمين عن الموضوعات التي فيها فوائد لطلاب الأدب كثير، فمن أراد الاستزادة فليرجع إلىٰ كتابه فيض الخاطر الذي جمع فيه كل مقالاته[٢].

---

(١) حياتي لأحمد أمين (ص٢٦٤-٢٦٦).

(٢) وخاصة مقالة: الصدق في الأدب، ومقالة: أدب اللفظ وأدب المعنىٰ، ومقالة هل يشيخ الأديب، ومقالة: ما الذي ألهمني الأدب، وغيرها من المقالات.

كلام العلامة
محمد الخضر حسين[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقال له بعنوان: طرُق الترّقي في الكتابة:

(ليست هذه الصناعة كغيرها من الفنون لها قواعد مضبوطة، ومسائل مدوّنة يتدارسها الكتَّاب، فتنتهي بهم إلىٰ معرفة إيراد

---

(١) هو: محمد الخضر بن الحسين بن علي بن عمر الحسني التونسي: عالم إسلامي، وأديب وباحث، ويقول الشعر، من أعضاء المجمعين العربيين بدمشق والقاهرة، وممن تولوا مشيخة الأزهر. ولد في نفطة (من بلاد تونس) سنة: ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٣م، وانتقل إلىٰ تونس مع أبيه، وتخرج بجامع الزيتونة، ودرّس فيه. وأنشأ مجلة (السعادة العظمىٰ).

وترأس تحرير مجلة (نور الإسلام) الأزهرية، ومجلة (لواء الإسلام) ثم كان من (هيئة كبار العلماء) وعين شيخًا للأزهر (أواخر ١٣٧١ه، واستقال منه سنة (١٣٧٣هـ).

وله تآليف، منها (حياة اللغة العربية) و(الخيال في الشعر العربيّ و(مناهج الشرف) و(الدعوة إلىٰ الإصلاح) وغيرها.

توفي في القاهرة سنة: ١٣٧٧ هـ، ١٩٥٨م.

انظر: الأعلام للزركلي (٦/ ١١٣-١١٤)، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين (١/ ١١).

الكلام في معاريض الفصاحة وحسن الاطراد في أنحائها، وإنما هي عبارة عن تنبيهات ترشد إلىٰ الجهات التي تنمو بها قوىٰ التفنن في تصاريف الألفاظ والتأنق في تحسين هيئاتها التأليفية.

ولا نستفيق جهدًا إن شاء الله في البحث عن تلك التنبيهات واستقصائها، والإيماء إلىٰ الكيفيات التي ينبغي أن توضع التراكيب في قوالبها، عسىٰ أن تبعث تذكرتها في أفئدة نصراء اللغة العربية من أبناء هذا العصر نشاطًا جديدًا، فيجهدوا أنفسهم عصبة واحدة، ليلجُّوا بنا في حدائق ناضرة ومروج خضرة مما تستبدعه الأنفس وتلذه الأسماع.

الإجادة في وضع الأقاويل أحكم وضع، لا يأخذ بناصيتها إلا من كانت له قوة حافظة، وقوة مايزة، وقوة صانعة.

فالقوة الحافظة: يستوعب بها الكاتب من مواد اللغة ما يسعه لكل غرض يأخذ في تفصيله وتفهيمه، حتىٰ يكون آمنًا مطمئنًا من أن يكبو لسانه عيًّا وفهاهة، عندما يدفع لوصف خيل أو نظام جيش أو حالة حصن أو سلاح أو معمل أو صورة حرب مثلًا.

والقوة المايزة: يمتاز بها ما يحسن من الكلام بالنظر إلىٰ ترصيف كلمه وتآلف حروفه، وبالنسبة إلىٰ المقامات التي يوجه

إليها بسياقاته، فقد يتفق مقولان لشخص واحد، ويكون أحدهما أحسن في نفسه والآخر أحسن بالنسبة إلىٰ موقعه.

والقوة الصانعة: هي التي تتولىٰ العمل في ترتيب الألفاظ والمعاني، والتدرج من بعضها إلىٰ بعض، فتصدرها ملتئمة النسج غير متخاذلة النظم، بريئة من التمايز الذي يجعل كل جملة كأنها منحازة بنفسها.

لا تكمل القوة المايزة إلا بالانصباب علىٰ مطالعة المنشآت البعيدة الغور في بيانها، المنتمية إلىٰ الطرف الأعلىٰ في عذوبة ألفاظها ورشاقة معانيها، وبتوسم ما أرسل في طيها من الاعتبارات المناسبة بذوق جيد ومهل في النظر، فمعرفة الفنون البلاغية وحدها غير كافية لاستواء هذه القوة واستحكامها، فقد نجد في المتضلِّعين من قوانينها الخبيرين بلحمتها وسداها من لا يُفرِّق بين الأقاويل المتفاوتة في بلاغتها وصفاء ديباجتها، وإن ارتفع بعضها فوق بعض درجات.

ولا تبلغ القوة الصانعة مبلغ التمكن وسرعة الترسل، إلا بعد ارتياضها بالتمرين والاستخدام في كل غرض تخفق عليه إرادتها، في

أزمنة متوالية، ومما يربط بالأسف والتحسر علىٰ قلب كل مسلم أينع في صدره غصن المغيرة علىٰ اللغة الفصحىٰ، أنك ترىٰ في الذين أوسعوا العلوم الأدبية خبرة، وساروا في التطلع علىٰ الإنشاءات الرفيعة عنقًا فسيحًا، حتىٰ أدركوا مغامزها وأشرفوا علىٰ ما وراء أكماتها، يعجز عن التصرف في صوغ فقرات تُلمُّ شقاقًا أو تؤكد إخاءً مثلًا، ذلك لفقده القوة الصانعة، التي لا يقيم صلبها إلا الإدمان علىٰ العمل، وهو القاعدة التي يجري عليها كل تقدم وارتقاء.

ومن الطرق التي تنهض بالكاتب في زمن يسير، وتساعد قوته الصانعة علىٰ الإجابة في طرفة عين، وتطبع في صحيفتها ملكة الهجوم علىٰ المعاني وبثّها في ألفاظ رصينة غير متوعرة، انحيازه إلىٰ دري بشعاب هذه الصناعة، يقف به علىٰ المنافذ التي يسري منها الخلل إلىٰ التأليف، ويبصره بالمذاهب التي ارتقت من نحوها التحارير الفائقة، ولقد قال أئمة الصناعة الشعرية: «لا تجد شاعرًا إلا وقد لزم شاعرًا آخر المدة الطويلة، وتعلَّم منه قوانين النظم، واستفاد منه الدِربة في أنحاء التصاريف البلاغية». فقد كان «كُثيِّر» أخذ علم الشعر عن «جميل»، وأخذه جميل

عن «هدبة بن خشرم»، وأخذه هدبة عن «بشر بن أبي حازم»، وكان «الحطيئة» قد أخذ علم الشعر عن «زهير»، وأخذه زهير عن «أوس بن حجر»، وكذلك جميع شعراء العرب المجيدين، والشعر والكتابة أخوان[1].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في موضع آخر وهو يتحدث عن الإبداع في فنون الكلام:

(الإبداع في فنون الكلام له أغراض ومهيئات، يقول الباحثون عن دقائق هذه الصناعة:

المهيئات: طيب البقعة، وفصاحة الأمة، وكرم الدولة، فقلَّما برع في المعاني من لم تنشئه بقعة فاضلة، ولا في الألفاظ من لم ينشأ بين أمة فصيحة، ولا في جودة النظم من لم يحمله علىٰ مصابرة المخاطر في أعمال الروحة الثقة بما يرجوه من كرم الدولة.

يعنون بطيب البقعة: نزاهتها عما يوحش، بتدفق ماء الحسن علىٰ مناظرها، يؤكد قولهم هذا أن غالب المتصرفين في صياغة الألفاظ،

---

(١) موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين (١٢/ ١٢٧-١٢٩)

الغواصين علىٰ المعاني المبتدعة هم أهل الحواضر[1]، وما ذلك إلا لتوفر أسباب الانبساط بها، واشتمالها علىٰ معان شتىٰ، ينتزع الذهن منها هيئات غريبة لا طريق لتصورها إلا المشاهدة.

وأما فصاحة الأمة: فلأن اللغة ملَكَة تحصل للسامع علىٰ نحو ما يلقيه إليه السمع، فتكون عبارة المتكلم بالضرورة متابعة في جودتها ورداءتها لما عليه لغة قومه التي رُبِّي بها وليدًا، ولبث فيها من عمره سنين، ولتوغل «قريش» في البلاد العربية وبعدهم عن أهل اللغات الأجنبية، كانت لغتهم أفصح لغات العرب، ثم من اكتنفهم من «ثقيف، وهذيل، وخزامة، وبني كنانة، وغطفان، وبني أسد، وبني تميم»، وأما من بعد عنهم»كربيعة، ولخم، وجذام، وغسان، وإياد، وقضاعة، وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة»، فلم تكن لغتهم تامة الملكة، وعلىٰ نسبة بعدهم من قريش وقع الاحتجاج بلغتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية.

---

(١) قال في الحاشية: نعني بأهل الحواضر من لهم خبرة بشؤونها سواء نشؤوا فيها أو وردوا عليها.

ويعنون بكرم الدولة: إقبال عظمائها علىٰ من آنسوا منه رشدًا وبراعة في فن من الفنون لترقيته لما هو به جدير، وبذلك ينشط غيره من عقال التماوت، ويثب علىٰ بضاعة تجارتها نافقة، والسعي وراء أعمال نتيجتها محققة، ويدلنا لهذا ما يحكيه المؤرخون عن الملك المعظَّم المتوفىٰ سنة ٦٢٤ هـ، من أنه شرط لكل من حفظ «مفصَّل الزمخشري» مائة دينار وخلعة، فحفظه خلق كثير لهذا السبب.

ومن تتبع تواريخ الفحول الذين اشتهروا في هذه الصناعة الأدبية أو غيرها من الفنون، وجد الغالب منهم مرموقًا من قبل الدولة بعناية تقوي العزائم، وتبعث في الهمم العالية روح النشاط[١].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في موضع آخر وهو يتكلم عن الفصيح من الكلام:

(ترىٰ كثيرًا منهم يسارعون إلىٰ التصنع في التركيب والتوغل في الغرابة ما استطاعوا، ظنا منهم أن التصنع فيها مما يرتفع به شأن الكلام في الحسن والقبول، كلا، لا يكسبه ذلك إلا هِجنة وانحطاطًا

---

(١) موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين (١٢/ ١٢٢-١٢٣) بتصرف يسير.

إلىٰ الدرك الأسفل في هذه الصناعة، وإنما الممدوح عندهم ما كانت معانيه واضحة وعبارته مستعذبة، بعيدًا عن تكلُّف الاصطناع، ولذلك إذا اشتغل الشاعر العربي بالتنقيح اختلف أهل العربية في الأخذ عنه، فقد كان «الأصمعي» يعيب «الحطيئة»، واعتذر عن ذلك بأن قال: «وجدت شعره كله جيدًا فدلني علىٰ أنه كان يصنعه، وليس هكذا الشاعر المطبوع، إنما الشاعر المطبوع الذي يرمي بالكلام علىٰ عواهنه جيده علىٰ رديئه».

ومما يوجب التعقد في الكلام وصعوبة الفهم، القصد إلىٰ المعاني التي يتوقف فهمها علىٰ مقدمة من معرفة صناعة، أو حفظ قصة، فالواجب ألا يستعمل من الأخبار والأقاصيص إلا ما اشتهر بين غالب الأدباء، أما الذي لا يعهده إلا الخاصّة منهم فالإشارة إليه إحالة علىٰ مجهول، وينبغي التحاشي عن استعمال شيء من معاني العلوم والصنائع أو شيء من عباراتهم، إذا كان الغرض مبنيًا علىٰ ما هو خارج عن تلك العلوم والصنائع، فإذا كان الغرض مبنيًا علىٰ وصف أشياء علمية أو صناعية، فإيراد

تلك المعاني والعبارات غير معيب في ذلك الغرض، ومما عيب علىٰ «أبي تمام» قوله:

مـودة ذهـبٌ أثمارهـا شـبه   وهمةٌ جوهر معروفها عرضُ

لأن الجوهر والعرض من ألفاظ المتكلمين الخاصة بهم...

وعندي أن المراسلات الخصوصية يحسن فيها ملاحظة القصص المستظرفة، وإن لم تكن مشتهرة، كما يحسن فيها إيراد المعاني العلمية، وعدَّ أهل البديع للتلميح لها من الحسنات رعاية لهذا المقام، ومما يُعاب به الشاعر إيراد المعاني الكثيرة في البيت الواحد لما فيه من التعقيد علىٰ الفهم، قال «ابن خلدون»: «كان شيوخنا يعيبون شعر أبي بكر بن خفاجة شاعر شرق الأندلس، لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد، كما كانوا يعيبون شعر المتنبي والمعري بعدم النسج علىٰ الأساليب العربية».

ولما أكثر «مسلم بن الوليد» و«أبو تمام» من استعمال المحسنات، بَعُدَ شعرهما عن الانسجام وسهولة المأخذ، وأخذ الشعر من ذلك العهد هيئة غير هيئته العربية، حتىٰ إنَّ فحول الشعراء إذ ذاك كانوا يقولون: «قد أفسد هؤلاء الشعر بذلك

الشيء الذي يسمونه البديع».

وكما يجب تجنب المعقد والوحشي من الألفاظ، ينبغي التحفظ من السوقي المبتذل، فإنه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة أيضًا، ويخدش وجه مَلَكة الفصاحة ويفسدها علىٰ صاحبها، وما علىٰ الفصيح إلا أن يقصد من التراكيب ما كانت معانيه تسابق ألفاظه إلىٰ الفهم بالنسبة للأواسط الذين لهم إلمام باللغة العربية، ولا تستنزله عن هذه الرتبة لومة لائم ليس له من اللغة إلا القدر الذي تتلقفه ألسنة العامة، فمن أسباب تلاشي اللغة واندراس أطلالها، تنازل فصحائها إلىٰ استعمال الألفاظ العامية الساقطة.

وحقيق علىٰ علماء التدريس أن يكونوا علىٰ نسق واحد في التزامهم عند إلقاء دروسهم محاذاة الأساليب العربية، فإنه ضرب من التطبيق للقواعد التي يلقنها التلميذ، وبذلك تتقوىٰ عارضته، ويتسع مجاله في التعبير عما في ضميره بألفاظ متمكنة في البيان؛ لأن السمع أبو الملكات اللسانية(١).

---

(١) المصدر السابق (١٢/ ١٢٤-١٢٦) بتصرف.

وأختم ما يتعلق بهذا الأديب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بحديثه عن (الكلام الجامع) فقد قال:

(مما يُفضَّل به إنشاء الكلام، فيقع من النفوس أحسن موقع، ويؤثر فيها تأثيرًا بليغًا، تذييله بفقرة أو بيت أو شطر علىٰ جهة الاستدلال علىٰ ما قبله أو علىٰ جهة التمثيل، تقريرًا للمعنىٰ الأول وتأكيدًا لمفهومه، ويسمَّىٰ الكلام الجامع أو إرسال المثال.

وممن سبق إلىٰ هذا النوع الأغر، وحجَّل به مقاطع قصائده ونهاية فصولها زهير، ومن ذلك ما تمثل به في آخر معلَّقته:

«أمن أمِّ أوفىٰ دمنةٌ لم تكلَّمِ».

ثمَّ عُني به من المولدين «أبو الطيِّب المتنبي»، فولع به وأخذ به قريحته حتىٰ أحرز قصبات السبق دون أقرانه.

قال «أبو منصور الثعالبي» في كتابه «يتيمة الدَّهر» عند ترجمة المتنبي:

«ليس اليوم مجالس الدَّرس أعمر بشعر أبي الطيّب من مجالس الأنس، ولا أقلام كتاب الرسائل أجرىٰ به من ألسن

الخطباء في المحافل، ولا لحون القوّالين والمغنيّين أشغل به من كتب المؤلفين والمصنّفين».

ولا ينبغي الإسراف منه والاستكثار من إيراده عقب كل فصل، ولكن يلمع به في بعض الفواصل دون بعض خوف السآمة والملل، فإن النفوس لا ترتاح لما يرد عليها من أفانين الكلام، إلا إذا غشيها علىٰ فترة وكانت زيارته غبًا.

وفي كتاب الله من هذا المهيع البديع والنموذج الذي تُنسج عليه الحكم ما تندهش له العقول الراسية، وقد عقد له «جعفر بن شمس الخلافة» في كتاب «الآداب» بابًا يخصه)[1].

---

(١)المصدر السابق (١٢/ ١٣٢-١٣٣) بتصرف.

كلام العلامة

المصلح محمد البشير الإبراهيمي[1] رَحِمَهُ اللهُ

قال رَحِمَهُ اللهُ في كيفية تكوين الملكة الأدبية:

(إنما يربي الملكات الأدبية الصحيحة ويقوّمها- الإدمان، إدمان القراءة المتأنية المتدبرة لكتب الأدب الحرّة الأصيلة،

---

(١) هو: محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي: مجاهد جزائري، من كبار العلماء. ولد بقرية «رأس الوادي» بناحية مدينة سطيف بالشرق الجزائري عام ١٨٨٩م. وأنشأ جمعية العلماء (١٩٣١م) وتولىٰ ابن باديس رئاستها والإبراهيمي النيابة عنه. وأبعد هذا إلىٰ صحراء وهران سنة (١٩٤٠م) وبعد أسبوع من وصوله إلىٰ المعتقل توفي ابن باديس، وقرر رجال الجمعية انتخاب الإبراهيمي لرئاستها. واستمر في (معتقل آفلو) من سنة ١٩٤٠ - ١٩٤٣م، وأطلق. فأنشأ في عام واحد ٧٣ مدرسة بل كتّابا، وكان الهدف نشر اللغة العربية.

وكان ينشر مقالاته في جريدة البصائر، بالجزائر وهو رئيس تحريرها، فجمعت المقالات في كتاب (عيون البصائر) وهو من خطباء الارتجال المفوهين.

من مؤلفاته: (شعب الإيمان) في الأخلاق والفضائل، و(التسمية بالمصدر) و(أسرار الضمائر العربية) وغيرها.

توفي سنة: ١٣٨٥هـ = ١٩٦٥م).

انظر: الأعلام للزركلي (٦/ ٥٤)، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي(١/ ٩).

والاستكثار من حفظ الشعر واللغات والأمثال، ومعرفة مواردها ومضاربها، والتنبّه لمواقع استعمالها من كلام البلغاء، من شعراء وخطباء وكتّاب، ثم ترويض القرائح والألسنة والأقلام على المحاذاة؛ ذلك أدنى أن تستحكم الملكة، وتنقاد القريحة فتجري الأقلام على سداد، ويمدّها الفكر من تلك المعاني بأمداد، وتوضع الكلمات في الجمل، في موضع اللآلئ من العقد، وما جاء حسن العقد منظومًا، إلا من حسنه منثورًا، ثم تكون الحِكم والأمثال والنكت كفواصل الجمان في العقود الثِّمان)[١].

وقال في موضع آخر فيه مزيد تفصيل لكيفية تكوين الملكة الأدبية:

(فالملكات الأدبية لا تكفي فيها القريحة والطبع حتّى تمدّها الصنعة بأمدادها، وأوّلها متن اللغة غير مأخوذ من القواميس اللغوية لأنها لا تنتهي بصاحبها إلى ملكات لغوية ولا أدبية، وإنما يجب على من أراد أن يربّي ملكته على أساس متين أن يأخذ اللغة من منثور العرب ومنظومهم، فيستفيد بذلك فائدتين: الأولى الكلمة ومعناها، والثانية وضعها في التركيب وموقعها منه وموقعه

---

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٣/ ٥٨٠-٥٨١).

من النفوس، وحسن التركيب هو سر العربية، ويسمّيه علماء البلاغة حسن التأليف، ومن كلماتهم التي سارت مسير الأمثال قولهم: ولكل كلمة مع صاحبتها مقام.

أما أخذ الألفاظ متناثرة من كتاب لغة كالقاموس المحيط ثم وضعها في تركيب كيفما اتفق، فإنه عمل بعيد عن التوفيق مجانب للصواب لأن صاحب القاموس لم يُرد أن يُكوّن بكتابه أديبًا، وإنما أراد أن يخلق مدرّسًا،....وإذا ذكرنا قاموس الفيروزابادي فما كلّ القواميس مثله: فلسان العرب كتاب يعلّم اللغة، وكتاب المقاييس لابن فارس كتاب لغة يعلّم الأدب، وكتاب المخصّص لابن سيده كتاب لغة وأدب معًا، أمّا اللغة الحقيقية فهي أشعار العرب وأحاديثهم وخطبهم ومحاوراتهم، وأما كتب الأدب المحض فهي كتب الجاحظ والمبرد وابن قتيبة وكتب المحاضرات من مثل عيون الأخبار ومحاضرات الأدباء والعقد الفريد ولباب الآداب للأمير أسامة بن منقذ وكتب النقد ككتابي قدامة بن جعفر علىٰ صغر حجمهما والصناعتين للعسكري والعمدة لابن رشيق حتّىٰ تنتهي إلىٰ المحيط الهادي: الأغاني وما أدراك ما الأغاني.

محالٌ أن تكمل ملكة في الأدب لِمَن لم يقرأ هذه الكتب كلّها قراءة تأنٍّ ودرس، ويحفظ لكل شاعر مجل جاهلي أو إسلامي أشرف شعره وأجزله، ثمّ يأتي كمال الأدب وهو أن يعرف طبقات الشعراء وموازينهم وخصائصهم، وأن يعرف من السير والأخبار ما يحلي به أدبه نظمًا أو نثرًا، فإن الأدب بدون هذه النكت كالطعام بلا ملح[١].

وأختم بكلمة له قيِّمة عن مكانة الأديب وحقوقه يقول فيها:

(والأديب إنما يكون أديبًا بحق حين يكون أمين القلم، صادق البيان، ينقل إحساسه إلىٰ قارئه في عمق وصدق، فلغة الأدب وحدها هي الترجمان الأمين لعواطف هذه الشعوب، واللسان المبين الذي يعرض خلجاتها، ويفصح عن آمالها وآلامها، والأديب لا يعرف الإقليمية ولا الحدود، ما دام صادقًا في التعبير عن حاجات قارئيه، نابعًا عن بيئتهم، تتمثّل فيه خصائصها الإنسانية، ولا تتكسر أمواجه عند خطوط الوهم الجغرافي، أو رسوم الحد السياسي. إنه كالنسيم يحمل العبير أينما سار، يصعد في ذروة الجبل وينثال إلىٰ عمق الغور، وينساب علىٰ صفحات الوادي...

---

(١) المصدر السابق (٤/ ١٥٨-١٥٩) بتصرف يسير.

إنه ينطلق أبدًا، ويسعد الناس بشذاه، ولا يبالون من أي روض نشر ولا أي سبيل عبر، ما داموا يعرفون في عطره أشذاء روضهم، ويحسون في تياره فوران إحساسهم، ويرون فيه أنفسهم جادين أو هازلين، ضاحكين أو واجمين.

وأول ما يجب أن نحمي منه الأديب والأدب هو تلك العواصف التي تطفئ جذوته وتمسخ نوره ورونقه، وتمسّه بالعوز والكدية والصعلكة، فلا بدّ أن نبذل للأديب من رحابة الحياة وشرف العيش ما يجعله معتدل الحس رضيّ النفس، صادق التعبير، غير ضجر بضيقه وعسره...

وإذا كنا نريد للأديب الرخاء ورحابة العيش، حتىٰ يفرغ لفنه، فإن الحرية الفكرية للأديب هي مداد قلمه الذي بدونه لا ينتج ولا يثمر... لا بدّ من حماية الأديب من كل ما يزيّف فنه، ويدفعه إلىٰ التخفي وراء الرمز والغموض...

ومن حماية حرية الأديب أن نتجه بالنقد وجهة موضوعية فنية، ونبعد به عن تلك المهاترات التي تتأذّىٰ بها العيون والأسماع والقلوب والعقول، فالنقد تابع للإبداع، وليس الإبداع عبدًا للنقد.

وإن من حق الأديب أن نترك له الفرصة الملائمة ليجرّب ويجرّب، فالتجربة إن أثمرت كانت فتحًا جديدًا، وإلا فهي دربة وخبرة تصقل الموهبة، وتكشف حقائق الحياة.

ومن حق الأديب العربي أن نحميه من تميع الشخصية وتحلّل المقوّمات، فلكل أدب طابعه ولكل أمّة نهجها ومشكلاتها الخاصة وطبيعتها المعيّنة التي تملي حلولًا معيّنة، فلا بدّ من الرجوع إلىٰ بيئتنا وماضينا وتراثنا ومقوّمات جنسيتنا وقوميتنا، قبل أن نحاول جديدًا...

فيجب أن يظل أدبنا عربيًّا في أصوله وقواعده، لا شرقيًّا ولا غربيًّا... يجب أن يظل أدبنا عربيًّا يستمد شخصيته وأهدافه من حاجاتنا الواقعية لا المفتعلة ولا المزيّفة.

ولا بدّ من أن نذكر حماية حقوق الأديب في هذا المجال، فالأديب العربي لعله الوحيد في العالم الذي لا تكفل حقوق له، ولا يُحمىٰ إنتاجه من استغلال المستغلين وسرقات المنتهبين...

ولعلّ من حماية حقوق الأديب حمايته من الدخلاء علىٰ فنه الذين يهبطون بالمستوىٰ الرفيع إلىٰ حضيض الابتذال، وربما

كان هذا هو السبب في ضياع الأديب الحق الذي يتمسك بفنه، بينما يتاجر غيره بالإسفاف وينجح في ظلّ المعايير المختلفة والمقاييس المضطربة، وربما كان ذلك أيضًا سببًا من أسباب ضياع المكانة الاجتماعية للأدباء، بعد أن كانوا في أيام العباسيين مثلًا وزراء وأمراء لهم الصدارة والحكم بين الناس...

يجب أن نعلم أن خلاصة الثقافة والفكر تتمثّل في الإنتاج الأدبي، فلنحمِ الأديب من نفسه بأن نطالبه بعمل فني يصوّر خلاصة ثقافته وتجاربه، ولنفسح له في حياتنا العامة مكانًا من أماكن الصدارة أو التقدّم فهو بهذا جدير، ولنعلم فوق هذا أن الأدب والأدباء عنوان العصر ومرآة الجيل، وعلىٰ لهواتهم يتردّد تاريخ الأمم والشعوب، ويظلّ وراءهم خالدًا باقيًا، فلنحرص علىٰ أن يكون لقب «الأديب» عنوانًا علىٰ ذروة الكمال النفسي والفني، ولنرتفع بهذا اللقب عن أن يتسمّىٰ به من لا يرتفع إلىٰ مستواه [(١)].

---

(١) المصدر السابق (٥/ ٢١٠-٢١٤) بتصرف.

كلام الأديب
أحمد حسن الزيات[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إجابة عن سؤال له عن فن الأسلوب، فقال:

(الأسلوب كما عرفته في كتابي «دفاع عن البلاغة» هو طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة في اختيار الألفاظ وتأليف الكلام. وهو مظهر لتلك الهندسة الروحية لملكة البلاغة النفسية، يبرزها

---

(١) هو: أحمد بن حسن الزيات: صاحب (الرسالة) أديب من كبار الكتاب، مصري..
ولد في طلخا بمصر سنة ١٣٠٢ﻫ، ١٨٨٥م، ودخل الأزهر قبل الثالثة عشرة، وفصل قبل إتمام دراسته.
وعمل في التدريس الأهلي، وتعلم مدة في مدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة.
ودرّس الأدب العربيّ في المدرسة الأميركية بالقاهرة (١٩٢٢م) ثم في دار المعلمين العليا ببغداد (١٩٢٩م).
انتخب عضوا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وكان قبل ذلك من أعضاء المجمع العلمي العربيّ بدمشق. ونال جائزة الدولة التقديرية (سنة ١٩٦٢م).
توفي بالقاهرة سنة: ١٣٨٨هـ= ١٩٦٨م). من مؤلفاته: «تاريخ الأدب العربي»، و«في أصول الأدب» و«دفاع عن البلاغة».
انظر: الأعلام للزركلي (١/ ١١٣-١١٤).

للحس ويصل بينها وبين الذهن وينقل أثرها المضمر إلىٰ الأغراض المختلفة والغايات البعيدة.

والبلاغة التي أعنيها هي البلاغة التي لا تفصل بين العقل والذوق، ولا بين الفكر والكلمة، ولا بين المضمون والشكل. لأن الكلام كائن حيّ، روحه المعنىٰ وجسمه اللفظ، فإذا فصلت بينهما أصبح الروح نفسًا لا يتمثل، والجسم جمادًا لا يحس، وأنا حين قلت الأسلوب هو الطريقة الخاصة في اختيار اللفظ وتأليف الكلام، كنت أريد اختيار الألفاظ علىٰ النحو الذي يرتضيه الذوق وتأليف الكلام علىٰ الوضع الذي يقتضيه العقل.

فالأسلوب خلق مستمر: خلق الألفاظ بواسطة المعاني، وخلق المعاني بواسطة الألفاظ، فليس هو المعنىٰ وحده، ولا اللفظ وحده، وإنما هو مركب من عناصر مختلفة يستمدها الفنان من ذوقه، وتلك العناصر هي الأفكار والصور والعواطف ثم الألفاظ المركبة والمحسنات المختلفة، هذا هو تعريف الأسلوب كما أراه وأتبعه وأدعو إليه.

أما خصائص هذا الأسلوب فقد شرحتها بالتفصيل في

كتابي «دفاع عن البلاغة» ومجملها أن يجتمع **للأسلوب صفات ثلاثة هي:**

الأصالة: تقوم علىٰ ركنين أساسيين: الكلمة الخاصة والعبارة الجديدة، فخصوصية اللفظ دلالته التامة علىٰ المعنىٰ المراد، ووقوعه المناسب، وبذلك يضمن الكاتب الدقة في التعبير، والوضوح في المعنىٰ، والصدق في الدلالة.

وجدة العبارة أساسها الابتكار في الخبر وتصوير الفكرة وتقويم الموضوع.

والصفة الثانية الإيجاز: وهو الاعتماد علىٰ التركيز، والاقتصار علىٰ الجوهر، والتعبير بالكلمة الجامعة، والاكتفاء باللمحة الدالة.

وليس من الإيجاز أن يقص الكاتب أجنحة الخيال، ويطفئ ألوان الحس ويترك أسلوبه كأسلوب التلغراف شديد الاقتضاب والجفاف.

أما الصفة الثالثة التي يجب أن تتوفر في الأسلوب البليغ، فهي التلاؤم أو الموسيقية أو الهرمونية.

وتكون في الكلمة بائتلاف الحروف، وتوافق الأصوات وحلاوة

الجرس، وفي الكلام بتناسق النظم وتناسب الفقر وحسن الإيقاع.

وسبيل ذلك المزاوجة بين الكلمات والجمل، كقول الله تعالىٰ: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فآتيناهما مثل وهديناهما، والكتاب مثل الصراط، والمستبين مثل المستقيم.

ولا بأس أن ينثر في خلال السياق قليل من السجع المطبوع في المواقف الشاعرية العاطفية.

وهذا الأسلوب لا يجري علىٰ مذهب معين من المذاهب المعروفة في الأدبين العربي والأوربي، فهو يأخذ من الاتباعية أو الكلاسيكية التقيد بالقواعد المقررة والتشدد في استعمال اللغة الصحيحة، ومن الابتداعية أو الرومانسية الانطلاق من الطبع والتحرر من التقيد، ومن الواقعية توخي الصدق في التعبير والاعتماد في الوصف علىٰ الواقع[١].

---

(١) في ضوء الرسالة، للزيات، ص: (ز،ح).

كلام الأديب
محمود محمد شاكر[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ

تكلم الأديب محمود شاكر عن كيفية تكوين الملكة الأدبية في مقالين له بعنوان: الطريق إلىٰ الأدب، ولنفاسة ما فيهما أنقل المقالين مع بعض الاختصار لهما.

---

(١) هو: أبو فهر، محمود بن محمد شاكر بن أحمد بن عبد القادر.
ولد في الإسكندرية في ١٣٢٧هـ، الموافق ١٩٠٩م،
تدرج في التعليم المدني إلىٰ أن التحق بكلية الآداب قسم اللغة العربية ١٩٢٦م.
بعد السنة الثانية في الكلية توقف عن مواصلة دراسته علىٰ أثر خلاف نشب بينه وبين أستاذه في الجامعة طه حسين حول منهج دراسة الشعر الجاهلي.
فسافر إلىٰ جدة مهاجرا سنة ١٩٢٨ م، وأنشأ هناك مدرسة جدة السعودية الابتدائية وعمل مديرا لها، حتىٰ عاد إلىٰ القاهرة في أواسط سنة ١٩٢٩م.
ثم انصرف إلىٰ الأدب والكتابة وقراءة دواوين الشعراء، وبدأ ينشر في مجلتي «الفتح» و«الزهراء» لمحب الدين الخطيب.
من مؤلفاته: المتنبي، أباطيل وأسمار، برنامج طبقات فحول الشعراء، نمط صعب ونمط مخيف، وغيرها.
توفي سنة ١٤١٨ هـ = ١٩٩٧ م.
انظر: معجم الأدباء الإسلاميين المعاصرين، لأحمد الجدع (ص١٢١٣-١٢١٥).

المقال الأول: الطريق إلىٰ الأدب (١):

(تلقيت رسالة من بعض أصحابنا يسألني فيها عن الطريق الذي ينبغي له أن يسلكه إلىٰ دراسة الأدب،....وحملني كتابه علىٰ التفكير في شأنه وشأن أمثاله من الأدباء الذين قتل أدبهم سوء التعليم في الصِّغَر، وفي الأدباء الذين يكتبون للأدب وهم لا يجيدون ما يكتبون، ولولا أن صاحبنا هذا حيي متواضع -كما وصف نفسه- لكان من الممكن أن يزاحم كما زاحم غيره غير مبال بتقدير نفسه وتقدير ما يكتب قبل أن ينشره علىٰ الناس، فلذلك أحببت أن أجعل رسالتي إليه رسالة عامة يحملها إليه بريد «الدستور». ولا بأس من أن يستفيد هو ويشرك معه غيره، إذ كان الذي يجده من الضعف يجد كثير من الناس مثله في أنفسهم، وكثير لا يبالي أن يجد ذلك ثم يكتب وهو لا يبالي أن يجيد أو يستفيد.

وأول ما تجب معرفته لكل طالب أدب، أن لكل علم آلة، ولكل آلة نظاما، ولكل نظام مبدأ، ولكل مبدأ أصولا، فإذا فسد الأصل فسد معه المبدأ والنظام وتوقفت الآلة حتىٰ يعلوها الصدأ، وإذا وقع بعض الاختلال في بعض الأصول أفضىٰ هذا

الاختلال إلىٰ الآلة فجعلها تدور متعسرة ضالة يتكسر سن منها علىٰ سن حتىٰ ينتهي بها ذلك إلىٰ الفساد عامة بعد الجعجعة والضوضاء والصخب الذي هو كل إنتاجها. فليس ثمة علم من العلوم أو فن من الفنون إلا وقد استأثر بأصول مؤسسة، لابد لكل راغب -في شيء من هذه العلوم والفنون- أن يستوعبها ويجيدها ويحسن التصرف فيها إذا عالجها حتىٰ لا يتوقف به العجز بعد الدخول في بحبوحة هذا العلم أو الفن، إذا فَجأهُ ما يفجأ مما لابد منه ولا محيص عنه....

فإن أصل العلم كله من أدب وفن وعلم إنما هو النفس والطبع والشعور، ولولا هذه لما كان في الدنيا علم، ولكن النفس لا تكتفي بأن تكون كل أعمالها صادرة عنها وحدها، بل إن الاجتماع الإنساني يضطرها أن تكون أبدًا متأهبة للتلقي كما هي مريدة للإذاعة، وأن تكون راغبة في مشاركة الآخرين في تأملاتهم كما هي متشوقة للانفراد بتأملاتها. وهذا يدل علىٰ أن النفس إذا انفردت لم تؤد أعمالها إلا ناقصة معيبة، لأن تمام أعمالها في المشاركة.

وكأني بابن خلدون قد رام هذا المعنىٰ إذ قال في مقدمته الجليلة، حين عرض لذكر «علم الأدب»: «هذا العلم لا موضوع له ينظر في إثبات عوارض أو نفيها، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجادة في فني المنثور والمنظوم علىٰ أساليب العرب ومناحيهم». ثم عد ابن خلدون أشياء لا قيمة لها في تحقيق معنىٰ الأدب. وأنت ترىٰ أن عبارته التي نقلناها مبهمة «غامضة» لأنه لم يجر إلىٰ شرحها والبيان عنها، ولكنه بعد أن تقدم في كلامه وضع التفسير لهذه العبارة من حيث لم يرد، ولكنه أفسد التفسير بالتعليق عليه، وذلك قوله:

«ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا: الأدب حفظ أشعار العرب وأخبارها، والأخذ من كل علم بطرف». فالأخذ من كل علم بطرف أصل عظيم للأديب، لأنه هو المعبر عن نفسه التي تريد أن تعبر عن النفس الإنسانية العامة التي يشترك في الاستمداد منها سائر البشر.

ومادامت كل العلوم في أصلها صادرة عن النفس فلابد للأديب من معرفة الأحوال التي تعرض لهذه النفوس فتوجهها

إلىٰ استجلاء الغامض الذي به وبإرادته وطلبه كانت هذه العلوم علوما.

وأخذ الأديب بطرف من هذه العلوم لابد أن يكون علىٰ طريقة الأديب لا علىٰ طريقة العالم، فإن الأديب ينفذ بنفسه وروحه فيما يقرأ من ذلك، ليحس ويستشعر نبض النفس الإنسانية الكبيرة في إنتاج هذه العلوم. وأما العالم فإنه يريد أن يستوعب في نفسه النبض العلمي الذي يجري عليه التحقيق والنقد فيها وبأسلوبها وعلىٰ هديها.

ولكن ابن خلدون أفسد معنىٰ هذه العبارة بشرحه إذ قال بعد ذلك: «يريدون (الأخذ بطرف) من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط، وهي القرآن والحديث إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب».

ولاشك أن هذه بعض ما يجب علىٰ الأديب أن ينال منه، وخاصة القرآن والحديث، فعليه أن يعب منهما عبًّا، لأنهما نهاية الإعجاز الإلهي والبشري في التعبير وفي المعاني وهما النظام الخلقي العام للبشر، وكلاهما يخاطب أول ما يخاطب

النفس الصافية ويمسها ويتغلغل فيها ويهزها ويملؤها ريا ونعمة وحياة.

ومنهما تتكون للأديب السليقة العربية الصحيحة الحرة التي لا تتقيد بالزمن ودواعي الزمن، من مثل القيد الذي جعل ابن خلدون يتوهم في شرحه للعبارة أوهاما فاسدة كقوله بعد: «فاحتاج صاحب هذا الفن -يعني الأدب- حينئذ إلىٰ معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائما علىٰ فهمها»!!

فابن خلدون إنما يشرح قولهم «الأخذ من كل علم بطرف» - علىٰ طريقة الأدب في عصره هو، وهو العصر الذي كان أدبه ترديدًا لحشرجة الميت لا معنىٰ للصوت فيها إلا معنىٰ انقضاء الأصوات وعجزها عن التعبير عن الحياة، ذلك كان صوت الموت إذا صوت في صدور أدباء عصره.

وكذلك زعمه أن لا مدخل لغير النحو واللغة والبلاغة والعلوم الشرعية في علم الأدب، إنما هو تصوير لأدب العصر الذي عاش فيه، فحكم ابن خلدون وشرحه وبيانه ليس إلا الحكم والشرح والبيان الذي اقتضاه عصره وحده. ومهما كان

ابن خلدون في الأدب بالمنزلة التي كان بها أول من استطاع أن يقرر قواعد علم الاجتماع- لكان قوله في علم الأدب غير ذلك، ولاهتدىٰ إلىٰ السر في تعبير القدماء من قولهم في الأدب أنه الأخذ من كل علم بطرف.

ولعل أهم ما أسقطه في هذا الخطأ ظنه أن قولهم «كل علم» يعنون العلوم التي قامت باصطلاحاتها، وليس كذلك، فإنهم أرادوا لب العلم لا حواشيه، وجعلوا «العلم» في هذه العبارة بمنزلة «المعرفة» التي لا تحده بحدود.

والسر كما ترىٰ هو أن الأدب تعبير عن الحياة كلها علىٰ طريقة نفسية محضة يراد بها أن تخاطب نفس نفسا بألفاظ من اللغة تروم بها التأثير والهز، وتنبيه النفس الإنسانية النائمة في نفس الفرد لتوجهه إلىٰ الغاية التي يرمي إليها الأديب بالضرب الذي اختاره من الأدب، ليكون بيانا عن الحياة مهما اختلفت أنواعها وأشكالها ومقتضياتها.

والأديب من أجل ذلك مضطر لدراسة الحياة وما فيها دراسة حية بنبض النفس وحركتها وأشواقها إلىٰ ما وراء المادة دون الجسمية أو العلمية التي تحجب فن الحياة دون أعين الأحياء ثم

هو بعد ذلك مدفوع إلىٰ طلب العبارة عن الإحساس الذي يجري في كيانه الإنساني العاقل المفكر المتأمل.

وسواء بعد أكان ما يريده من الأغراض علميًا أم فكريًا أم قلبيًا أم فلسفيًا، فكل ذلك إنما يستمد من الطبيعة التي انطوىٰ عليها، والتي صار بأسبابها ودواعيها أديبًا يريد أن يتكلم بألفاظه، وأن يترجم بنفسه عن النفس الخالدة الذائبة في الكون كله، والتي تعرف بالنفس الإنسانية العامة. هذا وسنتم فيما يستقبل بقية القول في أداة الأديب وما يجب عليه[1].

المقال الثاني: الطريق إلىٰ الأدب:

(... ونحن قد تناولنا في الكلمة السالفة تعريف الأدب الذي وضعه ابن خلدون في مقدمته، وأخذنا في نقده وتمحيصه لعلمنا أن الأدواء التي أدركت الأدب أو أصابته ترتد في أصل جرثومتها إلىٰ عهد بعيد متقادم. فأردنا بذلك البيان عن هذه العلة (بالتشخيص) والتحليل.

فإذا عرف طالب الأدب حقيقة الأدب كان ذلك أحرىٰ أن

---

(١)جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر (٢/ ٨١٥-٨٢٠).

يهديه سواء السبيل في كل ما يقصده من أغراض هذا الأدب وهذا هو الأصل، وأما الفروع التي تتفرع منه فهي هينة عليه بعد ذلك إن شاء الله. وقد كان القدماء الذين نقل عنهم ابن خلدون ومن هو في طبقته - يعرفون حقيقة الأدب معرفة نفسية، فلذلك كان كلامهم عنه صحيحًا موجزًا ولكن شرح أهل العصور المتأخرة التي ضلت عن حقيقة الأدب -حين شرحوا هذا الكلام الموجز الدقيق الفاصل- هو أصل الداء الذي تغلغل في الأدب العربي قديمه وحديثه، وهو الذي حقر الأدب في عيون أكثر الأدباء، وزيفه عند العامة.

فإذا استطعنا أن نخلص إلىٰ حقيقة أقوال القدماء الموجزة وعرفنا سر معانيها الجميلة الدقيقة، نظرنا -عندئذ- إلىٰ الأدب القديم نظرة جديدة تنفض عنه الأتربة التي طمست محاسنه وروائعه كل هذه القرون، وإذا عرفنا هذه المحاسن وما فيها من جمال وفتنة، استطعنا أن نغير أساليب القراءة وأساليب الفكر فيما نقرأ، فإذا أدركنا ذلك فهو أول الطريق إلىٰ الأدب الصحيح الذي نريده ونشتاق إليه، وهو بدء الحرية

الأدبية التي لا تعرف القديم والجديد بتلك الفكرة المفتونة المريضة التي ثارت في ميادين الأدب حينا من الدهر، تحقر القديم لقدمه، وتستعظم الجديد لجدته، علىٰ غرور واندفاع وتهور، حتىٰ تحطمت كل الموازين في أيدي أصحابها، ولم يبق للناس ميزان يعرفون به ما في الكلام من الصدق والجمال، وما فيه من الكذب والغش، وهما أقبح القبح، وهما الدمامة المتبرجة في زينة «المكياج» اللفظي لا في زينة الحق والعدل، فإن القبيح ربما حسن إذا عرف الإنسان سر القبح الذي فيه، ومن استطاع أن يعرف سر القبح فاشمأز منه، فهو خليق أن يعرف سر الجمال فيهتز له.

وحركة النفس بالاشمئزاز والاهتزاز هي أصل الأدب -إذا ما نشأت عن الإدراك أو النفوذ إلىٰ الإحساس بالسر الذي يكون به القبيح قبيحًا والجميل جميلا. فإذا تتام هذا الإدراك وهذا النفوذ وعملا في كشف الحجب عن هذه الأسرار علىٰ نظام وتدبير وتساوق واطراد فذلك هو طريق الأدب. فإذا خلص للأديب مذهبه في تناول هذه الأسرار علىٰ طريقته وبأسلوبه، واهتز إحساسه بالمعاني اهتزازًا قويا متجاوبا بأنغامه التي يتردد صداها

في كهوف النفس فتتابعت هذه الأنغام معبرة عن خواطر العقل والقلب والنفس والروح وآلامها وأفراحها وأحزانها ولذاتها، وظنونها وحقائقها، وأوهامها ويقينها، فذلك هو حقيقة الأدب. فإذا استطاع الأديب أن يصور هذه كلها بألفاظه ولغته وعبارته وأسلوبه الذي يحمل صور هذه الاهتزازات، ويحمل أنغامها في جرس الكلام، فذلك هو الأدب الذي ينسب إليه ويتميز به فيقال مذهب فلان وطريقة فلان وأسلوب فلان...

والوصول إلىٰ هذه الغاية من الأدب ليست عملا سهلا يكون قصده هو بلوغه كلا، فإن الفطرة وحدها أو الطبع الفطري وحده لا يكاد يصل إلىٰ ذلك في مثل زماننا هذا. بل هو كان يصل إلىٰ غايته في العصور الأولىٰ قبل أن يتكاثر الأدب ويتشقق الكلام، وتستقل الطرائق للناس بعد الناس من الأدباء.

وقد كان الطبع قديمًا كافيًا لتساوي من يتعاطىٰ الأدب في السليقة وفي بعض العلم وفي أكثر المعرفة، ولأنهم إنما كانوا يتناولون من أغراض القول علىٰ طريقة محدودة بطبيعة الاجتماع الذي لم يكن قد تراحب مثل التراحب الذي بلغه في زماننا....

ومن هنا أيضا تستطيع أن تعرف مقدار ما في قول ابن خلدون

من الخطأ إذ قال فيما نقلناه لك آنفا في المقالة الماضية «فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ إلىٰ معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائما علىٰ فهمها». فاسأل ابن خلدون ما جدوىٰ أن يفهم الأديب اصطلاحات العلوم؟ وإنما الاصطلاح حرف من الكلام مقيد معناه بالعلم الذي اتخذ له واصطلح عليه فيه، فإذا عرفه الأديب فهو بين اثنتين، إما أن يعرف اللفظ ليعرف معناه ويكون قائما علىٰ فهمه من حيث هو حروف مركبة وهذا شيء لا قيمة له -إذ كان الأديب لا يحتاج إليه ما لم يكن من أهل هذا العلم الذي وضع له الاصطلاح، أو أن يعرف ذلك ويقوم علىٰ فهمه ليستطيع أن يتعلم من هذا العلم، وينفذ في معاني أصحابه التي يقصدونها في علمهم هذا. فإذا فعل وتعلم وقرأ لهم وفهم عنهم، فهو لا ينتفع بهذا العلم إلا إذا اتخذه مادة تمد أدبه وتغذيه.

أما إذا تعلم هذا العلم ليفهمه علىٰ طريقة أصحاب هذا العلم وقيودهم التي قيدوه بها فهو باطل من حيث كان لا ينفعه فيما أراده من الأدب.

وإذن فطريقة الأديب في قراءة العلم هي طريقة امتياز، علىٰ

أصحاب العلم نفسه، لأنها طريقة استيعاب لما وصلوا إليه من حقائقه وأسراره، ثم تزيد علىٰ ذلك فطنة الأديب وبصره وإحساسه وقوة إدراكه للمعاني البعيدة التي تفضي إليها هذه الحقائق وهذه الأسرار، ثم قدرة الخيال علىٰ التطرح والتسامي، والتغلغل والنفوذ إلىٰ أعماق مبهمة، حيث يستطيع أن يعقد المقارنة ويقيم المشابهة ويجمع هذا إلىٰ ذاك، ويفرق بُعْدًا شيئين يتلازمان في بعض وجوه النظر وكذلك يهتدىٰ بالفطرة الصادقة الهادية إلىٰ معان وأسرار لا يصل إليها إلا من استقل بمثل هذا المذهب الذي يبدأ بصحيح العلم وينتهي بصادق الخيال.

وقد كان القدماء من شيوخنا يدركون ذلك، ويفصلون بين الطبع والطبع والسليقة والسليقة، وقد جهدوا أن يضعوا فاصلا يبين الحد بين الطبع الجيد والطبع الرديء، ولكن ذلك مما لا يرام البلوغ إليه في تحديد هذه الطبائع التي لا تخضع لسلطان علمي متميز بحد وقوة. فانظر مثلا إلىٰ قول القاضي أبي الحسن الجرجاني في كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه: «وملاك الأمر في هذا الباب خاصة، ترك التكلّف، ورفض التعمل، والاسترسال للطبع، وتجنب الحمل عليه

والعنف به، ولست أعني بهذا كل طبع، بل المهذب الذي صقله الأدب، وشحذته الرواية، وجلته الفطنة، وألهم الفصل بين الرديء والجيد، وتصور أمثلة الحسن والقبح»، انظر إلىٰ قول القاضي وتأمله تجده قد رام البيان عن حقيقة الطبع الذي يستقل بمذاهب الأدب ويقوم عليها، ولكنه وقع دون الغرض. قال عن الطبع: «تصور أمثلة الحسن والقبح». والتصور في هذا لا يكفي ولا يؤدي بالأديب إلىٰ غاية كالغاية التي نريدها نحن؟

نعم إن التصور شرط في كل شيء من الأدب، ولكن الإحساس بالقبح والحسن هو الأصل الذي لا أصل غيره في الأدب جميعه شعره ونثره، والإحساس المتلقىٰ وحده لا يكفي أيضا، بل هو الإحساس الذي يتلقىٰ فيثور فيندفع فينفذ كما ينفذ السهم أو كما يغيب الشعاع في ظلمة المعاني ليضيء للأديب والشاعر ما يستبهم علىٰ غيره وينغلق.

وأما قوله عن الطبع أيضا: «وألهم الفصل بين الرديء والجيد» فهو كلام جليل دقيق موجز، فإن الإلهام -هذا المعنىٰ المبهم الذي نحس به وبآثاره ولا نستطيع أن نعرفه أو نحدده- هو الأصل العظيم الذي يردف العقل، ويغذي الخيال، ويشحذ

الحس، ويهدي في الظلمات الجاثمة علىٰ المعاني والأفكار، وإذا استطاع الأديب أن يتنبه إلىٰ آثار الإلهام فيما يفكر فيه، وفيما يكتب وفيما يقول، واستطاع أن يجعل لعقله وفكره وبعض خياله نظامًا يسترشد في وضعه وتدبيره بهداية هذا الإلهام وتعرف آثاره في إنتاجه، فعندئذ تستقم له الطريقة وتنثال عليه الآراء والمعاني، ويدخل في الأسرار ويخرج علىٰ يسر وفي لين وبخفة، وهذا هو قول القاضي الجرجاني فيما سلف من كلامه:

«وملاك الأمر في هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض التعمل، والاسترسال للطبع، وتجنب الحمل عليه والعنف به».

ولولا أن القاضي لم يأخذ هذا الأمر من بدئه بل أمسك بذنبه وجرىٰ وراء الذنب، لكان وضع عبارته علىٰ التقديم والتأخير كما فعلنا نحن في شرح هذه العبارة. فإن تَرْكَ التعمل ورفْضَ التكلف والاسترسال وتجنُّبَ الحمل علىٰ الطبع هي النتيجة التي يبدأ عمل الأديب من بعدها فأين المقدمة التي تتقدم به في هذا الطريق؟ وكيف يستطيع أن يكون كذلك؟

نعم، فليس كل من ترك التعمل ورفض التكلف وتجنب الحمل علىٰ الطبع والعنف به ثم استرسل -بمستطيع أن يكون

أديبًا أو شاعرًا، لأن هذه ليست أداة ولا شبه أداة بل هي نتيجة طبيعية لشيء آخر فإن الإحساس المشبوب النافذ الحذر الذي يصيد معانيه من كل ما يتناوله بالسمع أو بالبصر أو بالفكر أو بالخيال ثم هداية الإلهام الحر الذي يستقل بأدب الأديب، هما اللذان ينتجان ما ينتجان، فإن الأديب إذا خلص له هذا كله لم يكن له بد من ترك التعمل ورفض التكلف والاسترسال.

وإنما يتعمل الأديب ويتكلف في أول الطلب، وفي بدء ممارسته للفن الأدبي الذي يريده، ويكون هذا التكلف والتعمل شحذا لحده، وصقلا لمرآته، وجلاء لروحه، وما هو إلا القليل حتىٰ ينطلق من هذه القيود الأولىٰ، ويتحرر من رق الرغبة، ومن عبودية التقليد والمحاكاة. فإذا انطلق الأديب وتحرر تصرف في أغراضه كلها علىٰ هوادة ورفق كأيسر ما يكون التصرف وأسهله وأنعمه وأرقه.

فلينظر طالب الأدب أول ما ينظر إلىٰ هذه الأُصول التي رتبناها، وليحاسب نفسه ويفهمها، وليعرف قوة طبعه معرفة التجربة، فإذا فعل ذلك وتدارس ما يجب عليه من الاختبار

لنفسه، فوجد عنده من الاستعداد لها أثارة قد طُبع عليها، فلا يخافن، فهو علىٰ الطريق وهو إلىٰ الغاية، وهو مدرك ما يبغي إن شاء الله[١].

واختم بكلام له في مقال بعنوان: الأدب والحرب يقول فيه:

(...فالأديب في حياته الإنسانية والأدبية يعيش علىٰ استمداد الطبيعة الأدبية التي تصيد من مادة الحياة التي يعانيها في كل يوم من أيامه، والتي أرصدتها لها طبيعتها لتكون له أبدا صيدا يغذو منه أدبه وفنه، ويربىٰ علىٰ دره عبقريته الأدبية، وطريقه إِلىٰ ذلك طريق لا يكاد يختلف. فالحياة الإنسانية اليومية هي المؤثر الأول في حياة الأديب، وهي التي تشكل أعصابه المفكرة بشكل الصورة التي يمكن أن تخضع لها هذه الأعصاب وتخضع فطرتها. وهذه الأعصاب المتصلة بعقل الأديب الحساس المعبر، هي التي تتناول المادة الفكرية لتصوغها صياغة جديدة من البيان. فليس شك إذن في أن الأفكار -أو الإنتاج- نفسه، سيكون مميزًا ببعض المميزات التي كانت نتيجة طبيعية للتأثير

(١) المصدر السابق (٢/ ٨٢١-٨٢٧)

الواقع بصورته في أعصاب الأديب. وعلىٰ ذلك -فمهما يتناول العقل الأديب من شيء من أشياء الفكر، قدم أو حدث، بَعُدَ أو قرب- ففي هذا الشيء تظهر آثار بينة من ضغط المؤثرات الإنسانية اليومية التي تقع عليه.

والفكرة في البيان الأدبي هي الأصل الذي تدور عليه بلاغة التعبير اللغوي، وذلك أن الألفاظ اللغوية التي يتداولها أهل كل لسان من الألسنة الكثيرة في هذا العالم ليست إلا رموزا محدودة بحروفها، يراد بها وجه من وجوه الدلالة علىٰ معان كثيرة، وهذه المعاني التي تدل عليها الألفاظ تختلف اختلافا كبيرا في فهم رجلين متقاربين متعاصرين وذلك لأن الألفاظ اللغوية بحدها الذي تحده به المعاجم ليس لها عمل البتة إلا إثارة المعاني في نفس قارئها أو سامعها، وهذا السامع أو القارئ يتحين أحيانا لمعانيه، فإذا هزته الألفاظ أخرجت من مكامنها تلك الأفكار الكثيرة المتشابكة المتداخلة التي لا تنتهي، والتي تنام دائما في واعية العقل -أو ما يسمونه العقل الباطن- وعندئذ لا يُبْقِي اللفظ

اللغوي معناه المحدود بالمعجم، بل ينطلق في مذاهب لا تنتهي، كل معنىٰ منها يركب معنىٰ آخر أو يتعلق به أو يتولد منه.

والعرب سمت هذه الحالة التي تعرض للألفاظ في سمع السامع وفهمه، وكلام المتكلم وبيانه، اسمًا خاصًّا أرادت به تعميم هذا المذهب في كلامها. ولولا أن البلغاء -أعنىٰ أصحاب علم البلاغة- قد حجروا ما وسع أصحاب اللغة والبيان العربي، لكان لهذا الباب مذهب آخر غير المذهب الذي درج عليه أئمتنا رضوان الله عليهم في دراسة هذا الباب من العلم.

وهذه الحالة التي ذكرناها هي المعروفة في علم البلاغة «بالمجاز». فالمجاز في اللغة هو الطريق، وسموه كذلك لأن اللفظ اللغوي يجوز من معناه الأصلي علىٰ طريق ومذهب إلىٰ معنىٰ آخر يتهافت إليه أو يتعلق به أو يهوىٰ في بعض هواه. وهذا المجاز الذي يجوزه اللفظ ينضبط ويتقرر علىٰ أصول نفسية محصنة، هي التي ترتاد للفظ سبيله الىٰ المعاني التي يمت إليها أو يمتد معناه فيها. والمجاز هو أصل البيان كله، والبيان هو أصل الأدب، والأدب قائم من ناحية أخرىٰ علىٰ الفكرة الأدبية، فمن

هنا ترىٰ أن المجاز في اللفظ والفكرة الأدبية هما الشريكان المترادفان اللذان ينشئان الأدب ويجعلانه شيئا خالدا من الفن المتكلم الصامت.

وإذا سقط أحد هذين من مذهب الأديب تساقط معه أدبه وتهافت، وإذا بقي أحدهما سابقا والآخر متخلفا كان ذلك مطعنا يغمز منه أدبه أو مقتلًا يلقىٰ من قبله حتفه، وكذلك تعلم أن لابد من تقاود الفكر واللفظ في البيان الأدبي حتىٰ لتجد كأنهما يتسابقان يقود أحدهما الآخر إلىٰ غايته، فلا تسلم صفة القيادة لواحد منهما دون الآخر، فإذا تم ذلك تم المعنىٰ الأدبي البياني الكامل في أدب الأديب، وتم له الخلود الدائم في التاريخ الأدبي والبيان اللساني الذي تتكون من أشيائه ثروة اللغة.

وإذا صح لديك -وهو لا شك صحيح- أن الأديب لا تجتمع لأدبه مادته إلا من الحياة اليومية التي تؤثر في فكره أشد التأثير، وتحمله علىٰ توليد المعاني الأدبية من معاناة الحياة ومداورتها ومقاساتها علىٰ لينها وشدتها، وأنه أشد الناس تأثرًا وإحساسًا بالأحداث الإنسانية والطبيعية كلها، وأن هذا الإحساس وهذا التأثر

هما الدافعان الأولان اللذان يوجدان فيه معانيه التي تحمله حملا علىٰ التعبير، وأن التعبير يتناول المادة اللغوية من الألفاظ فيدورها علىٰ أسلوب وطريقة وترتيب ينتهي إلىٰ شيء واحد: هو حفظ النسبة والعبارة بين اللفظ اللغوي والمعاني الجديدة التي يعلق بها الأديب أسبابه بأسباب معانيه. إذا علمت ذلك علمت أن الحرب وهي الهَزّ الدائم المستمر بين صباح اليوم وليله -توجد في أدب الأديب بيانًا جديدًا ومجازًا مبتكرًا وعبارة متناسبة تتجدد بها اللغة وتثرىٰ، وتختزن في خزائنها أموال الأدب التي يسهبها لها هذا الأديب[1].

(١) المصدر السابق (٢/ ٨٣٤-٨٣٦).

كلام الأديب الفقيه:
علي الطنطاوي[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(١) هو: علي مصطفىٰ محمد الطنطاوي
ولد في دمشق عام ١٣٢٧ه‍، الموافق ١٩٠٩م، لأسرة عُرف أبناؤها بالعلم، فقد كان أبوه، الشيخ مصطفىٰ الطنطاوي، من العلماء المعدودين في الشام وانتهت إليه أمانة الفتوىٰ في دمشق. وخاله، أخو أمه، هو محب الدين الخطيب الذي استوطن مصر وأنشأ فيها صحيفتَي «الفتح» و«الزهراء». نال الليسانس في الحقوق سنة ١٩٣٣.
كتب في أشهر الصحف في عصره فكتب في «المقتبس» و«فتىٰ العرب» و«ألِف باء» وغيرها.
عمل معلما في مدارس سوريا والعراق من عام ١٩٣١ إلىٰ ١٩٤٠.
ثم ترك التعليم، ودخل في سلك القضاء، ليمضي فيه ربع قرن كاملًا، وتدرج لأعلىٰ المناصب في المحاكم السورية.
توفي رحمه الله في جدة، ودُفن في مكة المكرمة سنة ١٤٢٠ هـ = ١٩٩٩ م.
مؤلفاته:
ترك علي الطنطاوي عددًا كبيرًا من الكتب، أكثرها يضم مقالات مما سبق نشره في الصحف والمجلات، ومن أهم مؤلفاته:
(بغداد: مشاهدات وذكريات، حكايات من التاريخ، ذكريات علي الطنطاوي (٨ أجزاء) وغيرها.
انظر: معجم الأدباء الإسلاميين المعاصرين، (ص٨٠٣-٨٠٣).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقال له بعنوان (كيف تكون كاتبًا):

(...ومن الخطأ بعد هذا كله أن يعتقد امرؤ أن الكتابة شيء يكون بالتعليم فهي شيء فطري في الإنسان والكاتب كما قالوا يولد كاتبًا، كما يولد الإنسان ذا صوت جميل، أو جسم قوي...؛ والجسم القوي لا يستكمل قوته؛ ما لم يربِّه صاحبه التربية البدنية، **والملَكَةُ الكتابية لا تكمل ولا تنتج الآثار البارعة ما لم تنضجها الدراسة الأدبية العميقة، وخير سبيل لإنماء هذه الملكة عند الطلاب هو أن يقرؤوا كتب الأدب القديمة ليتعلَّموا منها الأسلوب العربي ثم يقرؤوا لأهل البيان من كتَّاب العصر ثم يقرؤوا روائع الأدب الغربي لتعينهم علىٰ إتقان الأسلوب الفني.**

فإذا قعد بعد ذلك ليكتب، فلا بد له من أن يمرَّ علىٰ المراحل الآتية:

١ - عملية الجمع:

وأعني بها جمع الأفكار والصور، يجمعها من مشاهداته في الحياة ومطالعاته في الكتب، وتنتهي هذه العملية حينما يشعر

الكاتب أن هذه الأفكار قد أصبحت واضحة في ذهنه يستعرضها بسهولة ويستطيع الإحاطة بها.

٢ - عملية الاصطفاء:

فإذا انتهت هذه العملية شرع باصطفاء الصور والحالات التي توافقه وتلذُّه؛ ونبذ الباقي فإذا بقيت هذه الصور وحدها واضحة في ذهنه، انتقل إلىٰ العملية الثالثة وأمسك حينئذ بالقلم فبدأ.

٣ - عملية الترتيب (أو التصنيف):

وذلك بأن يضع كل صورة أو فكرة في المكان الملائم لها، وليس هناك قاعدة صحيحة للبداءة بالقصة، بل أن ذلك منوط بذوق الكاتب، وكثير من الكتَّاب يبدؤون بعرض أبطال القصة أولًا وبعضهم يبدأ بالزمان والمكان، أو الحادثة.

....فإذا تمَّ التصنيف بدأت العملية الرابعة:

٤ - عملية اختيار الأسلوب:

فأتصور نوع الأسلوب الذي أكتب به المقالة والألفاظ والتعبيرات التي أستعملها فيها وما إلىٰ ذلك (مما يسمَّىٰ بالفرنسية (La forme) ويقابله (Le fond) للمعاني

والأفكار) ومن المعروف أن الأسلوب يختلف باختلاف الموضوعات، فلا تكتب المقالة الوصفية بالأسلوب الخطابي ولا المذكرات والرسائل العائلية بأسلوب القصص المسرحية، ومن المعروف أن لكل أسلوب قواعد تختلف عن قواعد الأسلوب الآخر، يجب علىٰ مدرس الإنشاء بيانها للطلاب، فليس في وسعي أن أبيِّنها في مقالة صغيرة كهذه، ولقد صرفت وقتًا طويلًا في دراستها بنفسي بعد أن خرجت من التجهيز خالي الوفاض منها؛ لم أدرس منها شيئًا.

٥ - ثم يبدأ بالكتابة مراعيًا التصنيف الذي وضعه لنفسه، ويضع لكل مقال مقدمة جذَّابة يكون فيها براعة استهلال، وخاتمة مؤثرة، فيها حسن الاختتام.

أما الألفاظ فما أحب أن أكلم فيها إخواني الطلاب وإنما أقول لهم إني كلما تقدمت شعرت من نفسي بميل إلىٰ انتقاء أسهل العبارات وأقربها إلىٰ اللغة المألوفة، ونفور من زخرفة الجمل والعناية بالألفاظ.

وقد كانت هذه الزخرفة وهذه العناية بالألفاظ أكبر همِّي أولًا

حتىٰ لقد كنت أحسب البراعة في الكتابة بمقدار ما فيها من رنَّة موسيقية، لا بمقدار ما فيها من أفكار، ولا أبالي بنقد الناقدين لهذه الطريقة اللفظية الجوفاء، ولا أقيم له وزنًا، كما أن إخواننا هؤلاء لا يبالون (كما أقدِّر) بهذه الكلمة مني، ولا يقيمون لها وزنًا!

بقي عليَّ كلمة واحدة وهي:

إن كثيرين من الكتاب يميلون إلىٰ معرفة آراء الناس بكتاباتهم ويهتمُّون بهذه الآراء جدًا، حتىٰ أنها لتشجعهم إذا كانت حسنة وتذهب عزائمهم إذا كانت سيئة، وهؤلاء الكتاب يخسرون كثيرًا من مواهبهم، وينحطُّون عن المنزلة التي وضعهم فيها الله، يوم جعلهم كتَّابًا واختارهم لتبليغ رسالة القرون الآتية، فلا تعتادوا هذه العادة ولا تبالوا بأذواق الناس إذا خالفت أذواقكم، ولكن استمعوا إلىٰ نقدهم إذا كان يستند إلىٰ أساس علمي صحيح. أما إذا استند إلىٰ الذوق وحده فلا.. ولو كان ذوق أستاذكم)[١].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في حديث له عن تجرِبته في ميدان الكتابة والإنشاء:

(...لا تمنعني فضيلة التواضُع من ذِكر حقيقة معروفة لست

---

(١) فكر ومباحث للطنطاوي (ص١٤٣-١٤٦) بتصرف.

أدّعيها دعوىٰ ولكنني أقرّرها تقريرًا، هي أنني اتّبعت في الكتابة أسلوبًا يكاد يكون جديدًا، عُرف بي وعُرفت به، وما كان في أساتذتي الذين قرأت عليهم ولا في الأدباء الذين قرأت لهم وأفدت منهم مَن له مثله حتىٰ أقلّده فيه وأتّبع أثره، وإن كان فيهم من هو أبلغ مني وأعلىٰ درجة في سُلّم البيان...

فمن أين جئت بهذا الأسلوب؟ أعترف أنه ليس عندي جواب حاسم علىٰ هذا السؤال، فأنا لا أعرف مِمّن أخذته ولا عمّن نقلته. إن أساتذتي الذين قرأت عليهم ليس فيهم مَن ترك أثرًا أدبيًا يحشره في زُمرة الكتاب...

فمن أين قبست هذا الأسلوب الذي أكتب به؟ لم آتِ به ثمرة بلا شجرة، فما تكون الثمار إلاّ من الأشجار، ولا أوجدت شيئًا من غير شيء، فما كان موجودٌ من معدوم إلاّ إن قال له الله كُن فيكون. وما منّا إلاّ مَن تأثّر بغيره وأثّر في غيره، والدنيا أخذ وعطاء، وما مثالنا إلاّ كتاجر فتح دُكّانه علىٰ طريق القوافل يوم كانت التجارة مقايضة ومبادلة ولم تكن وُجدت نقود: يمرّ به المسافرون دائمًا، وكلّما مرّ به أحد أخذ منه سلعة

وأعطاه بدلها سلعة أخرىٰ، ولبث علىٰ ذلك أكثر من خمسين سنة فاجتمعَت عنده مئات من الأشياء من كل صنف وكلّ لون، فهل ترونه يعرف كلّ شيء منها مِمّن أخذه ومتىٰ أخذه وما الذي أعطاه بدلًا منه؟ هذا مثالي ومثال من كانت حاله كحالي؛ ما قرأت كتابًا، ولا جالست عالِمًا ولا أديبًا، ولا سمعت خبرًا، ولا رأيت سرورًا ولا كدرًا، ولا نزلت بلدًا ولا قابلت أحدًا، إلاّ ترك في نفسي أثرًا.

فهل أقدر أن أُحصي كم قرأت من الصحف، وكم لقيت من الناس، وكم رأيت من المسرّات والأحزان، وكم قصدت من الأقاليم والبلدان؟ كان لكل ذلك أثر في تفكيري، وفي مشاعري، وفي أسلوبي.

وإن لأسلوب كل كاتب سمات عامّة نستدلّ عليه بها؛ فبين سطورها وفي تضاعيف جُمَلها وكلماتها، وطريقة صفّها ورصفها، وطول جُمَلها أو قصرها، وسهولتها أو وعورتها، وقُربها من الحقيقة أو ضربها في طرق المجاز... في كل ذلك إمضاؤه واسمه، إن لم يكتبه في ذيل المقالة صريحًا كتبه هنا تلميحًا وتلويحًا.

....لذلك كان أفضل ما كتبت -في رأيي- ما كنت أنطلق به علىٰ سجيّتي وأساير طبعي، فأكتب بلا تكلّف ويقرأ الناسُ ذلك بلا تعب، وأسوأ ما كتبتُه ما كنت أتصنّع فيه وأحتشد له وأريد أن آتي بما أحسبه رائعًا، فأتعب أنا بكتابته ويتعب القارئ بقراءته)[١].

ويحسن في هذا المقام أن نذكر رأيه في أساليب بعض كبار الأدباء وذلك لما تضمنه كلامه من فوائد في تكوين الملكة الأدبية، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معرض حديثه عن تجربته في تدريس مادة الإنشاء للطلاب:

(كنت أقترح من قديم أن نبدأ في تدريس الأدب من أدباء عصرنا لأن أساليبهم أقرب إلينا وموضوعاتهم أمسّ بنا، لا من العصر الجاهلي (كما كنا نفعل) ثم ننتقل منه إلىٰ العصر الأموي فالعباسي. فلمّا استلمت مادة الإنشاء في كلية اللغة العربية وجدت فيها مجالًا لتحقيق هذا الاقتراح. لا أن أجعله درسًا في تاريخ الأدب، بل أن أعرض علىٰ الطلاب ألوانًا من أساليب الكتّاب أبيّن لهم مزاياها وعيوبها.

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي (٥/ ٣٧-٤١) باختصار.

ولست أذكر الآن كل ما ألقيته، ولم أكن كتبته فاستبقيته، ولكني أذكر أني عرّفتهم بأساليب طائفة صالحة من كتّاب العصر، كالرافعي؛ وهو من أصحاب الأساليب المتميزة، فتجد اسمَه في كل فقرة مما يكتب وإن لم يضع اسمه علىٰ ما كتب. وميزة الرافعي في توليده المعاني، ولكنه -مع هذه القدرة علىٰ التوليد- لا يخلو من الوقوع في التعقيد، لا سيما إن كتب فيما كان يسمّيه «فلسفة الحب والجمال» في مثل كتاب «السحاب الأحمر». وكنت أنصح الطلاب أن لا يعمدوا إلىٰ تقليده، لأنهم سيعجزون عن مثل توليده ويقعون في تعقيده! وأكثر ما كنت أنصحهم بقراءته من كتب الرافعي «تحت راية القرآن» و«وحي القلم»، أما «السحاب الأحمر» وأمثاله فأوصيهم بالابتعاد عنه.

وطه حسين؛ وأسلوبه صحيح فصيح ولكنه خالٍ من الجمال الذي يستهوي القارئ ويشدّه إليه، ثم إنه يكرّر ويعيد، ولذلك سببان أولهما أنه مكفوف يملي إملاء، ثم أنه مدرّس، ومهنة الكاتب ربما بدت ملامحها في آثاره. وتقليد طه حسين سهل، وإن كنت أنصحهم دائمًا أن لا يعمدوا إلىٰ تقليد أحد من الكتّاب

بل أن يقرؤوا ما تميل نفوسهم إليه، ثم ينظروا أثره فيها ثم يكتبوا في تصوير هذا الأثر، فيرَوا أنه سيبدو في الأسلوب الذي سيكتبون به.

والمازني؛ وأسلوبه من السهل الممتنع، فهو يكتب كما يتحدث فيحسّ قارئه أنه يستطيع أن يكتب مثله، فإن جرّب رآه عاجزًا مقصّرًا عنه. ثم إن المازني أوتي براعة في السخرية حتىٰ من نفسه فتجيء سخريته عفوية غير متكلّفة، فإن تَعمّد الطالب مثلَها ربما جاءت متكلَّفة ثقيلة.

أما العقّاد فلا خلاف في أنه مفكّر كبير وكاتب قدير، ولكنه ليس من أصحاب الأساليب الأدبية التي يعرف الناظرُ إليها صاحبهَا وإن لم يَرِد اسمه معها. وعلىٰ الضدّ منه زكي مبارك، فهو صاحب أجمل أسلوب في العربية في هذا العصر، ولكنه ضحل الأفكار. ولقد قرأت كتابه «ليلىٰ المريضة في العراق» ثلاث مرات، مرة لمّا كان ينشره مقالات في الرسالة، ومرتين لمّا جُمعَت هذه المقالات في كتاب، ولا آبىٰ أن أقرأه مرة رابعة، ثم إن سألتَني بعد هذا كله: ماذا يعني بليلىٰ المريضة بالعراق؟ أهي

امرأة بعينها أم هي رمز من الرموز وكناية من الكنايات؟ لقلت لك إنني لا أدري!

ومن الكتّاب من يكتب بأسلوب الصحفيين، لكنه أعلىٰ منها. والأسلوب الصحفي بليغ في موضعه ولكنه لا يصلح للأدب، فليس فيه مزيّة تستدعي الإعجاب ولا عيب يستوجب النقد. ومن هؤلاء توفيق الحكيم وأحمد أمين وحسين (لا حسنين) هيكل. **وأكثر ما يُفيد ناشئةَ الأدب من هؤلاءِ وينير لهم طريق الكتابة هو أحمد أمين، لأنه يأخذ من الحياة مشهدًا يشهده أو قصة يسمعها أو خبرًا يقرؤه فيبني مقالته عليه، و«فيض الخاطر» في رأيي أنفع كتاب يتعلّم فيه المبتدئ الإنشاء.**

ولست أريد الآن (ولا أقدر إن أردتُ) أن ألخّص كل ما قلت لهم وما ألقيت عليهم، أو أن أستقصي كبار كتّاب العربية فأصف أساليبهم جميعًا، ولكني أقول إني حرصت علىٰ أن أربّي في الطلاب الحسّ الأدبيّ، وأن يفرّقوا بين الأدب الأصيل والأدب المقلَّد، بين الذهب الخالص والنحاس المطليّ بالذهب. وكنت أنبّههم إلىٰ أن المقاييس تختلف، **فما يرجح**

في ميزان الأدب قد يكون مرجوحًا في نظر الدين، ورُبّ أديب أو شاعر يملأ اسمُه الدنيا ويشغل أدبه الناس لا يساوي عند الله طرفًا من جناح ذبابة، كابن هانئ وأبي نواس من الأولين، وكثير من الشعراء والأدباء في الآخِرين.

وكنت أنبّههم إلىٰ نصوص في الأدب لا يلتفت إليها المدرّسون وواضعو المناهج، ويشتغلون عنها بما كتب الحريري والصاحب بن عبّاد في المقامات، وما في ذلك كله إلاّ رصفِ ألفاظ وتلاعب بها، كساحر السيرك حين يُخرِج من كفّه عشرات المناديل الملوَّنة ويأتي بما يحسبه الناس حقًا وهو باطل في باطل.

كنت أُرشِدهم إلىٰ نصوص في السيرة فيها قصص أدبية كاملة، تجمع مع صحّة الحديث ومع أنها حقّ لا يداخله شيء من الباطل، تجمع شروط القصة كلها؛ كقصة الإفك حين ترويها أم المؤمنين عائشة، وقصة كعب بن مالك لمّا تَخلّف عن تبوك، وقصة عمر لمَّا سمع أن الرسول ﷺ طلق نساءه.

وكنت أنبّههم إلىٰ كلمات تسمو إلىٰ أعلىٰ درجات الفصاحة والبيان ولا يكاد يهتمّ بها أساتذة الأدب والإنشاء، كتوقيعات

الخلفاء والأمراء التي تجدونها في مثل «العقد الفريد»، كلمات قليلة تجمع من بلاغة اللفظ ومن عمق المعنىٰ ما لا يكون في الكلام الطويل. وفي كتب الفقه الأولىٰ قبل أن تفسد الملَكة ويختلّ الأسلوب كالأم للشافعي والمبسوط للسّرَخْسي. وقد كنت أقرأ فيه صفحات كثيرة لا لمعرفة الحكم الفقهي ولكن للاستمتاع بذلك البيان!)[١].

وأختم بكلمة له نفيسة عن الأديب الذي نحتاجه، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ:

(إننا نحتاج إلىٰ الأديب الذي عرف آمال الأمة وآلامها، وأدرك ما يَسُرّها ويسوؤها، ثم تقدم لتصوير آلامها وتقويتها علىٰ تحقيق آمالها.

نحتاج إلىٰ الأديب الذي قتل التاريخ علمًا وغاص علىٰ خفاياه ومعضلاته فأوسعها فهمًا، ثم عمد إلىٰ مواطن الفخر ومواقف الأسىٰ فصاغها قصيدة عصماء، كل بيت منها بمثابة قطرة من الدم تُهراق علىٰ مذبح الحرية والاستقلال.

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي (٨/ ٢١٧–٢٢٠).

نحتاج إلىٰ الأديب الذي آمن بعقيدة سامية فيها مصلحة الوطن، ثم وقف نفسَه علىٰ الدفاع عنها وتأييدها.

نحتاج إلىٰ الأديب الذي ترفّع بنفسه عن أقوال الناس، فلا يثيره مدح ولا ذم، ولا يستفزّه نقد ولا تقريظ، ما دام سالكًا الطريق القويم والصراط المستقيم)[١].

تم بحمد الله.

---

(١) البواكير للطنطاوي (ص١٧١-١٧٢).

ومن أراد مزيد كلام للأديب الطنطاوي رحمه الله عن الأديب وعوامل تكوينه فليرجع لمقالة له بعنوان:

(في التحليل الأدبي) تجدها في كتابه: (فكر ومباحث، ص٤٢) فقد تحدث فيها عن العوامل ذات الأثر الأكبر في تكوين الأدباء، وهي:

الزمان - والبيئة - والثقافة - والوراثة - والتكوين الجسمي.

ثبت المصادر والمراجع

١- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي:

المؤلف: محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي (المتوفى: ١٣٨٥هـ)، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، ١٩٩٧.

٢- الأعلام:

لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م.

٣- البواكير:

المؤلف: علي بن مصطفى الطنطاوي (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، جمع وترتيب: حفيد المؤلف مجاهد مأمون ديرانية، الناشر: دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

٤- جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر:

المؤلف: محمود محمد شاكر، جمعها وقرأها وقدم لها: الدكتور عادل سليمان جمال، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة - جمهورية مصر العربية، الطبعة: الأولىٰ، ٢٠٠٣ م.

٥- حياتي:

المؤلف: أحمد أمين، الناشر: دار التقوىٰ للطبع والنشر، الطبعة الأولىٰ: ١٤٣٨هـ- ٢٠١٦م.

٦- ذكريات:

المؤلف: علي بن مصطفىٰ الطنطاوي (المتوفىٰ: ١٤٢٠هـ)، راجعه وصححه وعلق عليه: حفيد المؤلف مجاهد مأمون ديرانية، الناشر: دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.

٧- رسائل الرافعي:

لمصطفىٰ صادق الرافعي، جمع: محمود أبو رية، الناشر: طبعة الدار العمرية.

٨- **فكر ومباحث:**

المؤلف: علي بن مصطفىٰ الطنطاوي (المتوفىٰ: ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتبة المنارة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

٩- **في ضوء الرسالة:**

المؤلف: أحمد حسن الزيات، الناشر: مكتبة نهضة مصر، مصر، الطبعة: الأولىٰ، ١٩٦٣م.

١٠- **فيض الخاطر:**

المؤلف: أحمد أمين، الناشر: مؤسسة هنداوي، القاهرة.

١١- **المذكرات:**

المؤلف: محمد كرد علي، الناشر: جار أضواء السلف للنشر والتوزيع، الرياض.

١٢- **معجم الأدباء الإسلاميين المعاصرين:**

المؤلف: أحمد الجدع، الناشر: دار الضياء للنشر والتوزيع، عمان - الأردن.

١٣- موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين:

المؤلف: الإمام محمد الخضر حسين (المتوفى: ١٣٧٧ هـ)، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، الناشر: دار النوادر، سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.

١٤- النظرات:

المؤلف: مصطفى لطفي بن محمد لطفي بن محمد حسن لطفي المَنْفَلُوطي (المتوفى: ١٣٤٣هـ)، الناشر: دار الآفاق الجديدة، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

١٥- وحي القلم:

المؤلف: مصطفى صادق الرافعي (المتوفى: ١٣٥٦هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

المحتويات